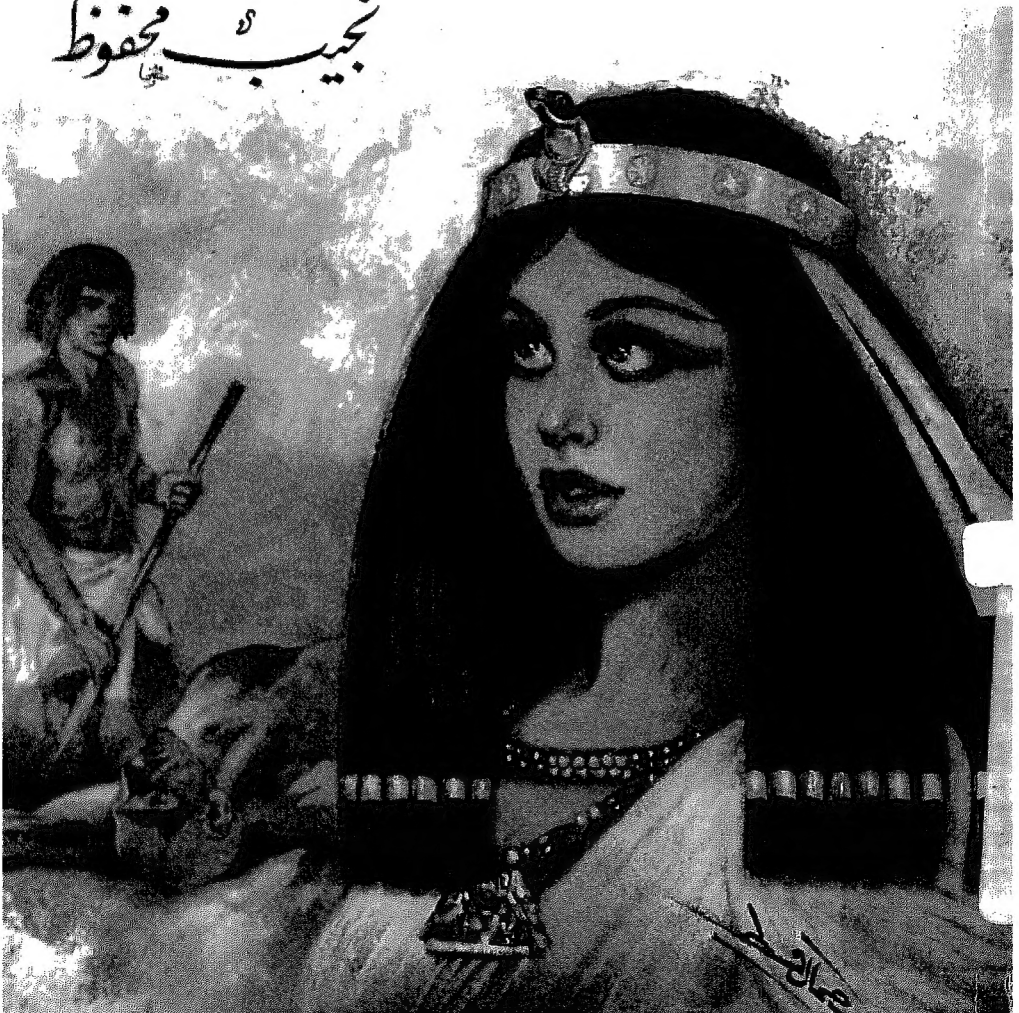




العائس في الحديقة

نجيب محفوظ



مطبعة خان بكينة ملهز

الغاشي في الحديقة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

أصل الحكاية

ولدت الرغبة فى أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة ، والسفينة تشق طريقها ضد التيار الهادئ القوى فى أواخر فصل الفيضان . بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أختى التى استقر بها الزواج هناك . وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة ، مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة ، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشائها . مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا ، متعرية الأشجار ، خالية الطرقات ، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة ، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة ، يجثم فوقها الضمّت وتخيم عليها الكآبة وتلوح فى قسماتها أمارات الموت . أجلت فيها البصر فانقبض صدرى ، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته :

— ما شأن هذه المدينة يا أبى ؟

فأجاب دون تأثر :

— مدينة المارق ، المدينة الكافرة الملعونة ، يا مرمى مون ..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات مثالة ثم سألت :

— ألا يوجد بها حى ؟

فأجاب أبى باقتضاب :

— ما زالت المرأة المارقة تنفس فى قصرها أو سجنها وهو الأصح ،

كما يوجد بعض الحراس بلا ريب ..

فغمغمت متذكرا :

— نفرتيى !

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها ١٢. وسرعان ما استعدت
ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس ، وحوار الكبار المحموم حول
الإعصار الذى أطاح بأرض مصر ، والإمبراطورية ، وما سموه بحرب
الآلهة ، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة
والقدر . أجل تذكرت تلك الأيام المنسية ، وما قيل عن دين جديد ،
وتمزق الناس بين الإيمان والولاء ، والجدل حول الحقائق الغامضة ،
والهزائم المريرة ، والنصر المقترن بالحزن . هاهى مدينة العجائب
مستسلمة للموت ، هاهى سيدتها سجيئة تتجرع الألم فى وحدة ،
هاهو قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شىء . وقلت لأبى :
— لن ترمينى بحب الدعة بعد اليوم يا أبى ، إن رغبة مقدسة تغزوني
مثل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر
شبابك يا أبى ..

فرمقنى أبى بعينه الكليلتين وتساءل :

— ماذا تريد يا مرى مون ؟

— أريد أن أعرف كل شىء عن هذه المدينة وصاحبها ، عن المأساة
التي مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية ..
فقال بجدية :

— ولكنك سمعت كل شىء فى المعبد .

فقلت بحماس :

— قال الحكماء قاقمنا « لا تحكم فى قضية حتى تسمع الطرفين » !

— الحقيقة هنا واضحة فضلا عن أن الطرف الآخر، المارق، قدماء ..
فقلت بحماس متصاعد :

— أكثر الذين عاصروه مازالوا أحياء يا أبى ، وجميعهم أقران لك
وأصدقاء . فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب
ومكنون الأسرار ، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها
الزمن كما أتى على المدينة ..

وواصلت إلحاحى عليه حتى استجاب لرغبتى ، بل لعله تحمس لها
فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق ، ولرسوخه فى العلم الذى جعل
من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عرف بين صحبه « بصاحب
الأرض الطيبة والحكمة النادرة » ، كما عرف قصره بالنذوات تروى
بها الحكايات وتردد الأشعار وتمتد بها موائد البط والنبذ .

وحررت لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث ، من شارك
فيها من قريب أو بعيد ، من ذاق حلوها ثم مرها ، ومن ذاق مرها ثم
حلوها . وقال لى :

— اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب فى رعاية الآلهة ،
أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة أما أنت فتريد الحقيقة ،
وكل على قدر همته ، ولكن احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت
بساقط فى النسيان ، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد
ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين ..

وسعدت جدا بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى
لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية ، ويضيف كل ذى شأن إلى
مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية ..

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد « المارق » : أصبحت العاصمة من جديد ، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون ، وعاد إليها رجال السلم والحرب ، واستقر الكهنة في معابدهم . وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء ، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع . كل شيء يتألق بالعزة والاستقرار ، وتيار السابلة لا ينقطع . وكنت أزورها لأول مرة في حياتي فبهرنى جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر ، واقتحمتني أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتها فتبدت لى بلدتي سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء . وقصدت فى الموعد المضروب معبد آمون ، فاخترقت بهو الأعمدة فى إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبي أوصلنى إلى الحجره التى انتظرنى بها الكاهن الأكبر . رأيته يجلس فى الصدر على كرسى من الآبنوس ذى مقبضين من الذهب ، شيخا هرما حليق الرأس ، داخل نقبة طويلة واسعة ، يلف أعلاه بوشاح أبيض . وضح لى أنه رغم شيخوخته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن . حيا أبى ونوه بإخلاصه قائلا :

— عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال .

. وأثنى على مشروعى متمتما :

— لقد حططنا الجدران بما سجلت من أكاذيب ولكن الحقيقة
يجب أن تسجل .

وحنى رأسه كالمتن وهو يقول :

— اليوم يتربع آمون على عرشه ، ويقف في سفينته المقدسة بقدس
الأقداس سيدا للآلهة ، حاميا لمصر ، رادعا لأعدائها ، ويسترد كهنته
سيادتهم الشاملة ، هو الإله الذى حرر وادينا بيد أحمس ، ومد حدودنا
شمالا وجنوبا وشرقا وغربا بيد تحتمس الثالث ، هو الإله الذى ينصر
ويذل من يخونه .

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه ،
واستجمعت حواسي للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول :

— إنها قصة حزينة يا مري مون بدأت فيما يشبه الهمس البرى ،
وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم
أمنحتب الثالث . امرأة من الشعب لا يعجرى فى عروقتها دم ملكى ، من
أسرة نوبية ، وكانت قوية وداهية كأن فى رأسها أربع أعين ترى الجهات
جميعا فى وقت واحد . وكانت فى الظاهر تحرص على إرضائنا
ومودتنا ، ولن أنسى قولها لى يوم احتفال بعيد النيل :

— أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون !

وكان من عاداتها أن تحلق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين
حتى يحنوا الرعوس متعثرين فى ارتباكهم . ولم نتوجس منها خيفة
ولانسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون ، حتى وجدنا
الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية لتشمل ديانات الآلهة
الأخرى وخاصة الإله آتون . ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى

المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها ، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز فى طيبة موطن آمون . ولم يلف من مشاعرنا ماردته تى من أن آمون سىظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سىظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء . وقال لى توتو الكاهن المرتل :

— إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين فى ذاته !

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال :

— الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة . وتقوى سلطة العرش .

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس :

— نحن خدام الإله والشعب ، نحن المعلمون والأطباء ، والمرشدون فى الدنيا والعالم الآخر ، والملكة العظمى سيدة حكيمة وهى لا شك تقرر لنا بالفضل .

فقال توتو بامتعاض :

— النزاع على السلطة ، والملكة قوية طموح ، وهى فى رأى أقوى من الملك نفسه !

فقلت وكأنما أناقش مخاوفى :

— نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر .

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنتب الثالث . لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثل فى اتساعها وتعدد أجناسها . وكان ملكا قويا ، يشب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير

يخطر ، وحقق انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة . غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء . جنى هو ثمار ماتعب أسلافه في زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء ، وبنى القصور والمعابد والتماثيل ، وغرق حتى أذنيه فى الطعام والشراب والنساء . وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف فى زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار ، شجعت على الحرب حين الحرب ، وتسامحت معه فى شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة ، ولتمارس طموحها غير المحدود ، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية ، ولا أنكر إخلاصها وبُعد نظرها وحرصها على المجد والعظمة ، ولكنى آخذ عليها نههما للسلطة ، ذلك النهم الذى سول لها أن تستغل الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين . ثم تبين لى أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها ، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين ، وتقدمتنى بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقاتمها القوية المتوسطة ، فلما استقر بنا المجلس سألتنى :

— ماذا يحزنك ؟

وجعلت أفكر فى اختيار رد مناسب ولكنها عاجلتنى قائلة :

— إنى أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة ، إنك تظن أنى أرفع من شأن

الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون ؟

فقلت مسلما :

— كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة ..

فقلت وعيناها تبرقان :

— إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر ، آمون سيد آلهة مصر ، وهو يقوم أمام رعايانا فى الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة ، أما آتون إله الشمس فإنه يشرق فى كل مكان وبوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة !

ترى أهذا حقاً ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية فى تقليد أظافرنا ؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى
وقلت :

— مولاتى ، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة !
فقلت باسمه :

— وبالمودة أيضاً ، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس ..
وآمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة ، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد .

وسكت الكاهن الأكبر كأنما ليتأمل أو ليتذكر ثم واصل حديثه :
— ومما يذكر أنه صادفتها فى مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب ، تعاني المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبى ، وبفضل آمون وكهنته ، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة ولكنها أنجبت بنتاً . وكلمنا التقينا فى القصر أو المعبد رمقتنى بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأنى المسئول عن سوء حظها . وما كنا نفكر فى تعكير صفو العرش أبدا ولكنها كانت قليلة الثقة فى الناس لفساد طويتها .
وسكت مرة أخرى كالمرتدد ثم قال :

— وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين !
وتريث الرجل حتى اشتعلت تساؤلانى الخفية ثم قال :
— مات أكبرهما وأصلحهما وبقي الآخر ليمارس شنوده فى
تخريب مصر .

وقرأ الكاهن تساؤلانى المحرقة فقال :
— نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين ، لنا
من السحر قوة ، ولنا من العيون قوة . فالمارق مجهول الأب ، فاقد
الرجولة ، مؤنث الصورة ، متنافر القسمات . وعلى مثال أبيه تزوج من
فتاة من الشعب ، جمعت فى شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبى والطموح
الجنونى والفسق . جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه فى سياسته
المدمرة . وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين . ورغم حبه الظاهر
لها فلعله لم يحب فى الواقع إلا أمه ، أعطته الحياة والأفكار ، ولشدة
التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه خنقا دعاه إلى الانتقام
منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون ، أما الحقيقة
فهى أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله فى حياته . وقد لقنته أمه دين
آتون التى آمنت به لأهداف سياسية ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا
السياسة التى لم توافق طبيعته الأنثوية ، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم
تتوقعه أمه نفسها . ما زلت للأسف أتذكر صورته الكريهة .. ما كان
رجلا وما كان امرأة ، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من
رجال وكهنة وآلهة . وقد اخترع إلها على مثاله فى الضعف والأنوثة ،
تصوره أبا وأما فى وقت واحد ، وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب ! ،
فكائنات عبادته رقصا وغناء وشرابا ، وغرق فى مستنقع الحماسة معرضا

عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو ، يستغيثون ولا يغاثون ، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس . هذا هو المارق الذى سمى نفسه إخناتون !

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات ثم شبك أصابع يديه فى قبضة واحدة وراح يقول :

— ومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن . وعنهم عرفت أن ولى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون ، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغاني . أدركت لتوى أنه صبى غريب ينذر بالمتاعب . وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى . وابتسم أمنتب الثالث وقال :

— ما زال ابنى طفلا .

فقلت :

— ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فى أعماقه بأفكار طفولته .

فقالت تبي :

— إنه ينشد الحكمة فى كافة مظانها بقلب برىء .

قال فرعون :

— عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية .

فقالت تبي :

— لا حاجة بنا إلى المزيد من البلدان ولكننا فى حاجة إلى الحكمة

للمحافظة عليها ..

فقلت بوضوح :
— لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة .

فقلت المرأة الداهية :
— مارأيت حكيمًا يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون !
فقلت بإصرار :
— إنى لأستهين بالحكمة ولكنى أراها لغوا بغير سند من القوة .
فقال أمنحتب :
— لا خلاف فى هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة .
فقلت بقلق :
— إنه انقطع عن زيارة المعبد ؟
فقال الملك :

— صبرا ، عما قليل سيؤدى كافة واجباته كولى للعهد ..
لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر ، بل لعل مخاوفنا — نحن الكهنة — وجدت ما يسوغها ويقويها . وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب . وذات يوم قابلنى أحد أتباعى وقال لى :

— الشمس نفسها لم تعد إلها !
فسألته عما يعنى فقال :
— إنهم يتهايمسون هناك عن إله جديد لم يعرف من قبل تجلّى لروح ولى العهد وطالبه بأن يعبدّه باعتباره الإله الوحيد الحقيقى فى الوجود ،

هو وحده لا شريك له ، وكل معبود سواه باطل .
صعقنى الخبر صعبا ، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر
أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر ، وتجسدت أمام عيني
الكارثة فى أبشع صورة .

— أنت واثق مما تقول ؟

— إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .

— وكيف تجسد له ذلك الإله المزعوم ؟

— سمع صوته فقط ..

— لا شمس ولا نجم ولا تمثال ؟

— لا شيء ألبته .

— وكيف يعبد ما لا يرى ؟

— إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة .

— لقد أذاب المجنون ذاته فى اللا شيء !

وقال الكاهن المرتل توتو :

— لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش .

فقلت برجاء :

— اهدأ يا توتو ، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين ..

فتسائل بحدة :

— ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق ؟

فقلت بكآبة :

— فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة

مع الملك ، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها فى تاريخنا الطويل ..

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم
الصدىق آى . كانت أيضا مثل الملكة العظمى نى من أصل شعبى
ولكنى تعلقت بأمل واحدا وهو أن يردده الزواج إلى شىء من التوازن .
ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه
ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر ، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب
لتدبير زيارة سرية تنتم بينى وبين ابنته . وتأملت بها بعين فراستى المستمدة
من روح آمون فتكشفت لى جمالها عن قوة ذكرتنى بالملكة العظمى نى
فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لا علينا . وقلت لها :

— تقبلى بركاتى يا ابنتى وابنة صديقى آى .

فشكرتنى بعذوبة فقلت :

— أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن
العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون، والملكة .
فقلت :

— سعيد من يصغى إلى حكمتك .

فقلت :

— والملكة الحكيمة تشارك الملك فى المحافظة على الوطن
والإمبراطورية .

فقلت بثبات :

— أيها الكاهن المقدس ، قلبى ملىء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح :

— مصر مثوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هى الوعاء المقدس

للتقاليد .

فقالت بالثبات نفسه :

— وقلبي ملئ بالواجب أيضا .

يالها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره . لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعي أن أكشفها بأكثر من ذلك . غير أنها في الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شيء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة أن تدبر أكبر رأس ، وسيكون همها الأول في الحياة المحافظة على العرش ، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن في قدس الأقداس ثم وافيتهم بفحوى الحوار بيني وبين نفرتيتي ، فقال توتو معلقا :

— سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلى متسائلا :

— ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى ؟

فلمحت مايرمى إليه وقلت بصراحة :

— لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تبي .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة في القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر ملكي لولى العهد ليقوم برحلة تعارف في أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك في أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفיק من ضلاله . وحمدت له ذلك في نفسي غير أن كاتبتي ظلت راسخة . وفي أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية ، فقد أنجبت تبي توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات . ورحل مبعوثون إلى ولى العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول

مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تبنى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها . وكان على أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك . قلت :

— جئت يا مولاتى لأفضى برأى إلى الأم الشرعية للإمبراطورية .

وأصغت إلى ومنظرها يوحى بأنها تحدى بفتنة ماسيقال .

— مولاتى ، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة .

فتجههم وجهها وقالت :

— لا تصدق كل ما تسمع .

فقلت بلهفة :

— إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتى .

فقلت باقتضاب :

— إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر .

ولدت بالصمت بغير اقتناع فقلت بثقة :

— سوف يعرف واجبه تماما .

فقلت مستجمعا شجاعتى :

— مولاتى تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش !

فقلت بضيق :

— لا خوف على عبادة الآلهة !

فقلت مستريدا من شجاعتى :

— أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك

الصغيرين وتكونين الوصية على العرش !

فقلت بحزم :

— سيحكم أمنتب الرابع لأنه ولى العهد .
هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة
وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودفن الملك الأب في
موعه ، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن
قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ،
وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه
فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن
يتحدى بعوضة لا آمن سيد الآلهة . وداريت تفرزى وعزيت مقتبسا من
حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقني بنظرات محيرة .
لا كراهية فيها ولا تحذير ولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبني
الصمت فبادرني هو قائلا :

— طالما تسببت لى فى مناقشات مرهقة مع والدى !

فاسترددت قدرتى على الكلام فقلت :

— لاهم لى فى الحياة إلا آمن والعرش ومصر والإمبراطورية ..

فقال بهدوء :

— لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

— سمعت أنباء مقلقة ولكنى لم أصدقها

فقال بلا مبالاة :

— إنها حقيقة !

فذهلت وانعقد لسانى فواصل حديثه :
— إني المؤمن الوحيد فى بلد من الضالين .
— لأصدق أذنى .
— بل صدقهما ، لا إله إلا الإله الواحد .
وافتحمنى الغضب لعقيدتى فلم أعد أبالى بالعواقب دفاعا عن آمون
وسائر الآلهة .

وقلت بصراحة مخيفة :
— هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر ..
فقال بهدوء باسم :
— لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد .
فقلت وأنا أنتفض من شدة الانفعال :
— إنه لا شئ .
فبسط ذراعيه بحنان وقال :
— هو كل شئ ، الخالق .. القوة .. الحب .. السلام .. السرور .
ثم ثقبني بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن :
— إني أدعوك للإيمان به .
فقلت محذرا محتدا :

— احذر غضب آمون ، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء ، قادر
على العون قدرته على الخذلان ، قادر على التأمين قدرته على التدمير ،
خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك .
فقال متماديا فى الهدوء :
— إني طفل يحبو فى رحاب الواحد ، وبرعمة تتفتح فى حديقته ،

إنى راض بقدره خادماً لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحى حتى أترعت
بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالى بعد ذلك بشيء !
فقلت بغضب :

— إن ولى العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدى آمون !
فقال باستهانة :

— بل يتوج تحت نور الشمس فى رعاية المخلوق الوحيد ..
وافترقنا على أسوأ حال . معى آمون والمؤمنون ومعهم تراث أسرته
المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذى لا يبالى بشيء .
وتوثبت للحرب المقدسة موطننا نفسى على التضحية فداءً للإلهى
ووطنى . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائى الكهنة :
— فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تعلموا الناس
به ..

ورغم حماسى وجدتنى مسوقاً إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل
فاقترحت عليه الانضمام فى الظاهر إلى المارق ليكون عيناً لنا عليه . ومن
ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضاً عن العمل فتم التتويج فى رحاب الإله
المزعوم وأصر بتشديد معبد له فى طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح
يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم
بدوافع شتى ولهذه واحدة وهو تحقيق طموحهم على حساب
عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ولكنهم سقطوا
كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آى اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره
الجاه وأعماه ، وحوار محب الجندى الشجاع لم يكن صاحب عقيدة
صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون

فلم يكونوا سوى منافقين لاهم لهم إلا الجاه والمال . ولولا ارتدادهم عن غيهم فى اللحظة الحرجة لاستحقوا القتل ، وقد فازوا بالحياة ولكننى لا أكن احتراماً لأى منهم . واشتد التوتر فى طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجننون سليل أعظم أسرة فى تاريخنا المجيد . وجزعت الملكة الوالدة تى وهى ترى غرس يديها وهو يتحول إلى نبات سام ، وهو ينحدر نحو الهاوية جاراً معه أسرته إلى الفناء . وواظبت على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة لتلطيف موجة التمرد العارمة التى تهدد باقتلاع العرش . وجعلت تقول لى :

— بالولاء تكسبون وبالتمرد تخسرون ..

وكنتم أقول لها :

— كيف تطالبيننا بالولاء لكافر !، ليتكم آمنتُم بنصائحي !
فتقول لى :

— علينا أن نطرد اليأس من أفقنا !

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنث المدلل ، وانهارت قوتها التقليدية حيال قوة جنونه الخفية ، ولم يكن مفر من أن نواصل القتال حتى النهاية . من أجل ذلك ضاق المجنون بطيبة ، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائية فى عيد آمون ، فادعى أن إلهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تشيد من أجله . هكذا أجبرناه على الهجرة مصحوباً بثمانين ألفاً من المارقين ليقيموا لأنفسهم سجننا تحل به اللعنة . وخلالنا الجو لإدارة معركتنا المقدسة ، وخلالنا الجو للإمعان فى الكفر والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهى والسكر والعردة والفسق التى يبشر بها إله مجهول الهوية شعاره الحب والسرور ! . وكلما ألح على

المجنون ضعفه الطبيعي غالى فى إظهار قوته فأمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة . وقلت لأبنائى الكهنة :
— لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت .

وقد وجدنا فى بيوت المؤمنين مأوى وفى قلوبهم جيوشا فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يوما بعد يوم . وتمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيا شعبه إلى الكفر ، وشد ما عانى الشعب فى تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته وولائه لملكه الذى أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثوى ووجهه المنفر وزوجته الجميلة الفاسقة .

تلك كانت أيام الأحزان والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة . وأحدثت رسالة الحب المؤنث آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم واستغلوا الناس أبشع استغلال ، وسرى التمرد فى أنحاء الإمبراطورية ، واستهان بحدودها الأعداء ، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلا من الجيوش فقتلوا دفاعا عن إمبراطوريتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون . وتوقف الخير المتدفق على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق وأفلس التجار وجاع العباد . وصحّت بأعلى صوتى :

— ها هى لعنة آمون الغاضب تحل بنا فأما القضاء على المارق وإما الحرب الأهلية .

ولم أدع فرصة للخير لم أجريها لتجنب البلاد ويلات الحرب فقابلت الملكة الأم تى ، وقالت لى بحرارة :
— إنى حزينة أيها الكاهن الأكبر .

فقلت بمرارة :

— لم أعد كاهنا أكبر ، لست إلا شريدا مطاردا ..

فقالت ملعثة :

— إني أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها .

فقلت لها :

— لا بد من العمل ، إنه ابنك ، وهو يحبك ، وإنك تتحملين تبعه
لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب
حرب أهلية لن تبقى على شيء ..

فقالت بامتعاض لتذكيري لها بمسئولياتها فيما حدث :

— لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون ..

ولأنكر أنها بذلت جهدا ولكنها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت ،
ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسى مجازفا إلى أخت آتون واجتمعت
بالرجال وقلت لهم :

— إني الآن أتكلم من موقع القوة ، وورائي رجال ينتظرون إشارة
للانقضاض عليكم ، ولكنى أثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ
ما يمكن إنقاذه دون سفك دماء أو خراب ، وسأترك لكم مهلة لتؤدوا
واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم ..

وقرأت في وجوههم الاقتناع بما قلت ، وبصرف النظر عن دوافعهم
الحقيقية فقد أدوا ما طالبتهم به وجنبوا البلاد شر ويلات كثيرة . قابلوا
المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين ، إعلان الحرية الدينية وإرسال
جيش للدفاع عن الإمبراطورية. ولكنه رفض معلنا بذلك جنونه على
الملا . وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل

وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنه رفض أيضا . غير أنه عين أخاه سمنخ رع شريكا له فى العرش ، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارا منا . وبإزاء عناد المجنون قرر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، بذلك تغيرت الدولة بلا حرب ولا خراب ، وفى نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقى على الوفاء له من رجاله .

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل ، وانقشع الكابوس ومضى كل شئ يعود إلى أصله على قدر الإمكان . أما المارق فبعد أن شبع جنونا أدركه المرض ومالبث أن مات خائب المسعى فى الدنيا وفاقد الأمل فى العالم الآخر ، مخلفا وراءه زوجته الشريرة تعاني الوحدة والهجر والندم .

وصمت الرجل طويلا وهو يرنو إلى ثم قال :

— نحن نضمد جراحنا ، يلزمنا عمل كبير وشاق ، خسارتنا فى الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر ، كيف حدث هذا ؟ .. كيف أتيح لمجنون مشوه أن يفعل بنا ذلك كله تحت سمع العقلاء وبصرهم ؟ !

وتريث قليلا ثم خاطبني قائلا :

— لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها فى دفترك بأمانة ، وأبلغ تحياتى والدك .

آى

هو الحكيم ، أبو نفرتيتى وموت نجمت ، ومستشار المارق . حفر
الكبر أخاديد فى وجهه وسكن فيها ، استقبلنى فى قصره المطل على
النيل فى جنوب طيبة . جرى حديثه فى هدوء وبصوت منخفض ودون
أن ينبض وجهه بأى انفعال . وقد أثر فى وقاره وعمره المديد وما يطوى
فى صدره من تاريخ حافل . بدأ حديثه بقوله :

— ما أعجب الحياة ، إنها سماء تمطر تجارب متناقضة .

وتفكر مستغرقا بفيض من الذكريات ثم قال :

— التحمت بالأحداث فى يوم من أيام الصيف ، دعيت إلى مقابلة
الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمية تى ، ولما مثلت بين يديهما
قالت لى الملكة :

— يا آى ، أنت رجل حكيم ، تعرف أجمل ما فى الدنيا والدين ،
قررنا أن نعهد إليك بترية ابنينا تحتمس وأمنحتب ..

فحنيت رأسى الحليق وقلت :

— سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته .

وكان تحتمس فى السابعة وأمنحتب فى السادسة . وكانا جد
مختلفين لحد التضاد ، فتحتمس قوى وسيم قصير القامة ، وأمنحتب
ضعيف البنية غامق السمرة طويل القامة أنثوى القسمات وذو نظرة رقيقة
وغازية معا تلتصق بالنفس بعمق . ومالبت أن مات الصبى الجميل وبقي
الضعيف الغريب . وهز الموت الصبى الحى هزة عنيفة جدا . بكى

طويلا ، وكلما خطرت ذكرى بكى من جديد . وقال لى :
— كان يزور معبد آمون ، ويتلقى الرقا والتعاويذ ولكنه مات ..
وقال لى أيضا :

— وأنت الحكيم المعلم فلم لا ترد إليه الحياة ؟
وقلت له :

— إن الروح تقول للميت « ألق عنك هذا الحزن أيها الأخ ، إننى
باقية » .

وجرنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت ، وشد ما أدهشنى
بإدراكه ووجدانه . كان يفوق سنه بأجيال . وساءلت نفسى أى صبي
هذا ؟! أ جاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب ؟ . وقد أتقن
مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة حتى قلت مرة للملكة
تبى :

— إن تفوقه ليخيف معلمه .

وكننت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيل ما يصدر عن
عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوما عرش أجداده . سوف يتفوق على
والديه رغم عظمتهم .

أجل كان أمنحتب الثالث ملكا عظيما ، بدار التأديب العصابة ، مقبلا
وقت السلم على الطعام والشراب والنساء فى عصر عرف بالرخاء ، وقد
أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع فى أسر العلل وفسدت أسنانه فكدرت صفو
أيامه الأخيرة . أما تبى فكانت من أسرة نوية كريمة ، وشهدت لها
الأيام بالقوة والحكمة حتى بزت حتشبسوت نفسها . وبسبب من غرام
زوجها بالنساء ولموت بكرىها تحتمس ولعت بالصبي الضعيف

المعجزة ولعا حرق المؤلف فكانت له الأم والحبيبة والأستاذ . وكانت تحب الحكم أكثر من الحب فضحت بقلبها فى سبيل السلطة ، وقد اتهمها الكهنة ظلما بأنها المسئول الأول عن انحراف ابنها الدينى ، ولكن الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا ، وكانت تحلم بأن يحل آتون محل آلهة الإمبراطورية باعتباره الشمس التى تنفث الحياة فى كل مكان ، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها . كانت ترمى إلى وضع الدين فى خدمة السياسة من أجل مصر ، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت ، وأبت طبيعته أن يجعل الدين فى خدمة أى شىء وأن يجعل كل شىء فى خدمة الدين . الأم طرحت سياستها عن وعى وتدبير ولكن الابن صدق وآمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه . وسكت آى قليلا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه صغيرا مضغوطة تحت شعره المستعار ثم واصل حديثه :

— كان فذا منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج ، كان معجزة حتى وجدتني فى كثير من الأحيان أناقشه مناقشة الند للند وهو فى العاشرة . وكان الحماس يتدفق من منطقته كأنه ينايع ساخنة ، وبرزت فى الهيكل الضعيف إرادة قوية لا تتوافق بحال مع ضعفه ، فأفنعنى ذلك بأن روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدربة آلاف المرات . وهام بالدروس الدينية هياما فاق كل توقع وأضرَّ بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش . ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قوية ، ولم يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة . وإذا به يقول لى ذات يوم :

— طيبة !، تقولون إنها المدينة المقدسة !، إنها وكر التجار
الجشعين والفسق والعهر ، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلمى ؟،
ألا إنهم من يضلون البسطاء بالخرافات ، ويشاركون الفقراء فى أرزاقهم
المحدودة ، ويغنون الفتيات باسم البركة ، فجعلوا من معبدهم مرتادا
للدعارة والعربة ، عليك اللعنة يا طيبة !
وأقلقنى قوله ، وتخالفت لعينى أصابع الاتهام وهى تشير إلى بوصفى
معلمه ، فقلت له :

— إنهم الأساس المتين الذى يقوم عليه العرش .
فهتف غاضبا :

— لا كرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور .
فقلت كالمحذر :

— إنهم قوة لا يستهان بها مثل الجيش ..
فهتف ساخرا :

— وقطاع الطرق أيضا قوة لا يستهان بها .
من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثانى فى قدس الأقداس ،
فتطلع إلى آتون الذى يضيء نوره العالمين ، وقال فى ذلك :
— آمون إله الكهنة ، آتون إله السماء والأرض .
فقلت بحرارة :

— إنك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة .
فتساءل مقطبا :

— أليس لنا قلوب نميز بها بين الحق والباطل ؟
فقلت بإغراء :

- سوف تتوج ذات يوم بين أحضان آمون .
فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلا :
— ولم لا أتوج تحت نور الشمس فى الهواء الطلق ؟
— آمون هو الذى ساند جدك حتى قيض له النصر .
فتفكر مليا ثم تساءل :
— لا أدرى كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته ؟
فقلت بقلق :
— له حكمته المضمون بها على البشر .
— الشمس لا يفرق نورها بين مخلوق وآخر .
فقلت بإصرار :
— الحياة ميدان صراع ، لاتنس ذلك .
فقال بأسى :
— يا معلمى لاتحدثنى عن الصراع، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق
الحقول والنيل؟! ألم تر الشفق عند المغيب ؟، ألم تسمع تغريد
البلابل ؟، وهديل الحمام ؟.. ألم تقتنص أبدا الفرحة المقدسة الغائبة
فى أعماق حياتنا ؟
شعرت بأن الزمام يفلت من يدى ، وأن الشجرة تنمو على هواها ،
وأنى أجر إلى مأزق ، فأفضيت بمخاوفى إلى الملكة تى ، ولكنها لم
تشاركنى قلقي وقالت لى :
— يا آى ، مازال طفلا بريئا ، سوف يخير الدنيا ، وعما قليل
سيتلقى تدريبه العسكرى .
ودعى الكاهن الصغير إلى الجندي الخاصة ضمن أبناء السادة النبلاء

مثل حور محب ، ولكنه لم يتناغم معها ، أو لم يجد القوة اللازمة لها ، فكرها ، وسجل على نفسه فشلا لا يليق بأبناء الملوك . وقال بمرارة :
— لا أود أن أتعلم مبادئ القتل .

وحزن لذلك أبوه حزنا شديدا وقال لى :

— إن الملك الذى لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده .

وحدثنى الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه ، ولعله منذ ذلك الوقت ترسبت فى أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم ، وهى التى غالى الكهنة فيما بعد فى تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثار ، والحق أنه لم يمح اسم أبيه إلا لاقرانه بآمون ، وآى ذلك أنه أعدم اسمه القديم واتخذ اسما جديدا هو « إخناتون » . ثم بلغ ذروة غربته مقتلعا نفسه من كافة جذوره فى ليلة غريبة لم يطلع عليها سواه . تم ذلك فى الخلو التى كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلة على النيل . وعلمت بما كان عندما لقيته فى الحديقة فى الصباح . أغلب الظن أننا كنا فى الربيع فى يوم برىء من الرطوبة والخمسين .

رنا إلى بوجه شاحب وعينين مسحورتين وقال لى دون أن يرد تحيتى :

— يا معلمى ، قد تجلى الحق !

عجبت لمنظره وسألته عما يعنى فقال :

— كنت فى الخلو قبيل الشروق ، رفيق الليل يودعنى والبصمت

يباركنى ، وخف وزنى فخيلى إلى أننى سأمضى مع ذيول الليل ،

وتجسدت الظلمة كائنا حيا يومئ بالتحية ، وأشرق فى داخلى نور طيب

الرائحة ، فرأيت الكائنات كلها مجتمعة فى مجال تحيط به العين ،
تتهامس متبادلة التهاني تهزها سعادة الترحيب ، وتستقبل الحقيقة
المقبلة ، وقلت لنفسى أخيرا انتصرت على الموت والألم ، وانهلّت
فوقى فيوضات السرور ، وتسلسل الوجود إلى صدرى فملأه برحيقه
العذب ، وسمعت بكل وضوح صوته وهو يقول لى « أنا الإله
الواحد ، لا إله غيرى ، أنا الحق ، اقذف بروحك فى رحابى ، اعبدنى
وحدى ، وهبنى ذاتك فقد وهبتك حبنى » .

تبادلنا النظر طويلا . غلبنى الصمت ، واليأس . قال :

— ألا تصدقنى يا معلمى ؟

فقلت صادقا :

— إنك لا تكذب أبدا .

فقال بنشوة عجيبة :

— إذن فعليك أن تصدقنى .

فسألته بلهفة :

— وماذا رأيت ؟

— سمعت الصوت فى مهرجان الفجر ..

فقلت بعد تردد :

— هذا يعنى أنه لاشئ .

فقال بيقين :

— هكذا يتراءى الكل إذا تجلى !

— لعله آتون .

— كلا ، لا آتون ولا الشمس ، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك ، إنه الإله الواحد .

فتساءلت فى حيرة :

— وأين تعبدہ ؟

— فى أى مكان ، فى أى زمان ، وسوف يمدنى بالقوة والحب ..
ولاذ آى بالصمت . وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون .
ولكنى تذكرت وصية أبى فأمسكت . لقد ارتد فى اللحظة الحرجة مع
المرتدين وربما ظل إيمانه سرا إلى الأبد . واستأنف آى حديثه قائلا :
— لم أجد بدا من إبلاغ الملك والملكة بما كان . وبعد أيام وجدت
الأمير ينتظرنى فى الحديقة التى يفضل البقاء فيها ما أمكنه ذلك ، فقال
لى معاتبا وباسما :

— وشيت بى كعادتك يا معلمى .

فقلت بهدوء :

— إنه واجبى أيتها الأمير .

وضحك قائلا :

— استدعانى أبى لمقابلة مثيرة ، فرويت له تجربتى فعبس قائلا :

— لا مفر من عرضك على الطبيب بنتو .

فقلت له بأدب :

— إنى فى تمام الصحة والعافية .

فقال بخشونة :

— لا أعرف مجنونا اعترف بجنونه أبدا .

ثم بنبرة وعيد :

— مصر بلد الآلهة ، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه ، وهذا الإله الذى تحدثنى عنه لا شىء فهو لا يستحق أن ينضم إلى مجمع الآلهة .

فقلت بهدوء :

— إنه الإله الوحيد ولا إله غيره .

فصاح بى :

— هذا كفر وجنون .

فكررت قولى حتى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشـر :
— إنى آمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك .
وانقطعت عن المناقشة احتراماً لأمره ، وقالت الملكة بنبرة لطيفة :
— إنك مطالب باحترام واجب مقدس ولينبض قلبك بما يشاء حتى تثوب إلى الهداية ..

وغادرت مجلسهما حزينا يا معلمى ولكن أشاء أصرارا ..

فقلت له بإخلاص :

— فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدسة ، لاتنس هذا أبدا .
وحدثنى قلبى بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال ، وأن هذه الأسرة المجيدة التى حررت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية . وفى ذلك الوقت ، وربما قبل ذلك فلسـت متأكدا من ترتيب التواريخ استدعاني كاهن آمون إلى مقابلة خاصة . قال لى :

— بيننا عهد قديم يا آى ، ما هذا الذى يقال ؟

قلت لك إننى لأذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب

(م ٣ — العائش فى الحقيقة)

ماذا عني ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد . على أي حال قلت له :

— الأمير يمر بالفترة الحرجة من العمر ، إنه إنسان ممتاز ، ومثله قد يدفعه الخيال شرقا وغربا ، ولكن سرعان ما يرجعه النضج إلى الحق .. فتبساءل بمرارة :

— وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين ؟
فقلت مدافعا عن نفسي :

— ما أصعب ترويض النهر في إبان الفيضان !
فقال بصوت قوى :

— على أي رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية !

وجعلت أناجي حيرتي ليل نهار منفردا ومع أسرتي المكونة من تى زوجتي ونفرتيتي وموت نجمت ابنتي . وعلى حين اتهمت تى وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتي تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة ، وتهمس في أذني :
— إنه الحق يا أبى !

ولابد من كلمة هنا عن نفرتيتي . كانت تقارب إخناتون في سنه ، ومثله حازت عقلا يفوق سنها . وقد تلقت البنات تربية عامة ومنزلية ممتازة ، ولكن موت نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهى والرسم والرياضة والرقص الدينى ، أما نفرتيتي فمع إتقانها ذلك كله تبهرت بدافع شخصي في الدين والأفكار . ثم كان ميلها إلى آتون ، والأعجب من

ذلك كله أنها آمنت بإله إخناتون وقالت بصراحة :
— هذا هو الإله الذى انتشلنى من حيرتى المعذبة .
وأثارت بذلك سحق تى مرييتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت
التي أتهمتها بالضلال .

وحدث فى ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عاما على
جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأول مرة .
و شاء القدر أن تستحوذ نفرتيتى على قلب الأمير ، وهكذا تزوجت من
إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدق ما يقع . واستدعانى
كاهن آمون مرة أخرى وقال لى بنبرة ذات مغزى :
— أصبحت عضوا فى الأسرة المالكة يا آى .

وشعرت بأنه يوشك أن يعدنى من الخصوم فدافعت عن الأمير
ماوسعنى ذلك وقلت له :

— إنى رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب .
فقال بهدوء :

— لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال !
وطلب منى أن أعد مقابلة بينه وبين نفرتيتى ففعلت بعد أن زودت
ابنتى بالوصايا . ولكنها والحق يقال لم تكن فى حاجة إلى وصاياى
فأسمعته كلاما جميلا دون أن تكشف عن سر أو تلتزم بعهد . وأعتقد أن
عداء الكهنة لابنتى بدأ مع تلك المقابلة .

وقالت لى نفرتيتى :

— لم تكن مقابلة يا أبى ولكنها كانت مبارزة غير معلنة ، الداهية
يدافع عن الإمبراطورية على حين أنه يدافع فى الواقع عن نصيب معبده

من الأغذية والكساء والخمور ،
وتراكت في الأفق سحب الكآبة ، واشتد النزاع بين الملك وولي
العهد ، وأخيرا استدعاني الملك وقال :
— أرى أن يقوم الأمير برحلة في أرجاء الإمبراطورية ليخبر بنفسه
الحياة والناس ..
فقلت باقتناع :
— فكرة طيبة يا مولاي !

كان الملك يقضى في ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة مع عروس في
سن أحفاده هي تادوخيا بنت توشراتا ملك ميتاني ، وإن كانت وبالا
على صحته !. أما إختاتون فقد غادر طيبة مصحوبا ببعثة من صفوة
الرجال . كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة . سعى إلى عبيده في
الميادين والحقول ملقيا عليهم مودة وبشاشة أذهلتهم ، وكانوا ولا شك
يتوقعون أن يمثلوا بين يدي إله جبار ينظر إليهم من عل أو لا ينظر إليهم
على الإطلاق . ودعا إلى لقاءه رجال الدين في الولايات المختلفة ولم ين
عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التي تبيح تقديم قرايين من البشر .
وبشر بإلهه الواحد، القوة الكائنة في قلب الوجود، الخالقة للجميع
على سواء والتي لا تفرق بين رعاتهم ونبلاء مصر . كما دعا إلى الحب
والسلام والسرور مؤكدا أن الحب هو قانون الحياة ، وأن السلام هو
الهدف ، وأن السرور هو شكر المخلوق لخالقه .
في كل مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونية . وبلغ منى الذعر
مداه فقلت له :

— أيها الأمير ، إنك تقتلع الإمبراطورية من جذورها ، وتثرها فى الهواء .

فتساءل ضاحكا :

— متى يدخل الإيمان قلبك يا معلمى ؟

فقلت بمرارة :

— لقد هاجمت الديانات التى جرى أجدادى على احترامها ،

وأعلنت المساواة والحب والسلام ، ولن يعنى هذا بالنسبة للرعايا
إلافتح باب التمرد وشق عصا الطاعة ..

وتفكر مليا ثم تساءل :

— لماذا يؤمن العقلاء بالشر بكل هذه القوة ؟

فقلت بتسليم :

— نحن نؤمن بالواقع .

فقال باسم :

— يا معلمى ، سأعيش فى الحق إلى الأبد ..

وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم أمنتب الثالث .

وهنا سرد على أنباء العودة ، والجنابة ، وجلس الأمير على عرش
أجداده باسم أمنتب الرابع ، ونفرتيتى شريكته بوصفها الملكة
العظمى ، وكيف دعاها الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا
إيمانهم به ، وكيف عين نتيجة لذلك ماى قائدا لجيش الحدود ،
وحور محب قائد للحرس ، وهو — آى — مستشارا للعرش . وقد
ورث الملك حريم أبيه كالمتمتع فأحاطه بالرعاية والزهد ! . كما أمر

بتخفيف الضرائب وبإحلال الحب محل العقاب . وكيف توتر الجو بينه وبين كهنة آمون حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له . وقد وقف آى عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمل فقال لى :
— ستسمع عن ذلك أقوالا متضاربة ولكن لا علم لأحد بأسرار القلوب !

وبدا أنه شعر بأنه مطالب بالكشف عن سر قلبه هو فقال :
— عن نفسى آمنت بالإله الجديد باعتباره إلهًا يمكن ضمه إلى بقية الآلهة ، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرض إلى حرية العقيدة !
وقال معلقا على سياسة الحب إنه قال لمولاه :
— عندما يأمن الموظف من العقاب سيقع فى الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب .
ولكن الملك قال له بيقين :
— مازلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحب ، ولن يخذلنى إلهى أبدا .

* * *

وقال آى مواصلا حديثه :
— انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة ، لم ولن ترى العين أجمل منها ، وأقيمت أول صلاة بالمعبد القائم فى وسط المدينة ، وأمسكت نفرتيتى بالطنبور متألفة الشباب والجمال وراحت تغنى بصوت رخيم :

يا حى يا مبدئ الحياة
ملأت الأرض كلها بجمالك
وقد قيدتنا بحبك !

واستقبلنا أياما أعذب من الأحلام ، حافلة بالهناء والسرور والحب والرخاء . وتفتحت القلوب حقا للإيمان الجديد . ولكن الملك لم ينس رسالته . وباسم الحب والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر . فمالبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار ، حتى اسمه غيره ، وقام برحلاته المشهورة فى أنحاء البلاد داعيا إلى دينه ، دين الواحد والحب والسلام والسرور . وعجبت لاستقبال الناس له فى كل مكان بالحماس والحب . وانطبعت صورته وصورة نفرتيتى فى القلوب كما لم تنطبع صورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم .

ثم أخذت الأحزان تزحف ، مترددة أول الأمر ثم انهلت كالشلال . مدت قبضتها أول مامدت إلى أحب بناته إلى قلبه ، ابنته الثانية ، ميكيتاتون الجميلة ، فجزع لموتها جزعا شديدا ، وبكاها بدموع غزيرة أشد مما بكى أخاه تحتمس فى صباه ، وجعل يصرخ من قلب مكلوم :

— لماذا يا إلهى .. لماذا يا إلهى !؟

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به . ثم ذاعت أنباء الفساد فى دواوين الحكومة والأسواق ، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء . ثم جاءتنا أخبار الإمبراطورية بتمرد الولايات وتحرش الأعداء بالحدود حتى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتانى.. والد بادوخيا . وقدمت نصيحتى قائلا بإلحاح :

— لابد من التطهير فى الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبراطورية ..

ولكنى وجدته صامدا ثابتا لا يتغير ولا يأس . قال لى :

— سلاحى الحب يا آى ، اصبر وانتظر ..

كيف أفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

الكهنة يتهمونه بالجنون ، وبعض رجاله شاركوهم فى هذا الاتهام فى الأيام الأخيرة من الأزمة . ولقد حرت فى أمره ولكننى رفضت ومازلت أرفض ذلك الاتهام . لم يكن مجنونا ، ولكنه لم يكن أيضا مثل سائر العقلاء ، كان شيئا بين هذا وذاك لم أعرف كنهه . وزارتنا الملكة الوالدة تيبى وسر الملك بالزيارة سرورا فاق كل تصور ، واستقبلها استقبالا لم تشهد أخت آتون له مثيلا . ونزلت الملكة فى قصر شيد لها خصيصا فى جنوب أخت آتون وظل خاليا فى انتظارها . واستدعتنى فاجتمعت بها وقد ساءنى أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنها الحقيقية . قالت :

— جئت لحديث طويل معه ولكنى رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع

رجاله .

فقلت :

— لم أقصر فى واجبى كمستشار أمين .

فقلت :

— أصدقك يا آى ، ولكن تراثنا لا يمكن أن يضيع هدرا ، ولكنى

أريد أن تصارحنى بأمانة ، هل تظل وفيا لابنى مهما حدث ؟

فقلت بصدق :

— لا يداخلك شك فى ذلك .

— هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معينة ترى أنها تعفيك من
الولاء ؟

فقلت بإخلاص :

— إنى عضو فى أسرته فلا أتخلى عنه أبدا .

فقلت متنهدة :

— شكرا لك يا آى ، الحال خطيرة جدا ، هل تثق فى إخلاص

الآخرين بنفس القوة ؟!

فتفكرت قليلا ثم قلت :

— بعضهم على الأقل لا يرتقى إليهم شك .

فقلت بتوجس :

— يهمنى أن أسمع رأيك فى حور محب خاصة ؟

فقلت دون تردد :

— قائد مخلص وزميل صبا الملك ..

فقلت بكآبة :

— هو من يقلقنى يا آى ..

— ربما لأنه صاحب القوة ولكنه لا يقل إخلاصا للملك عن مرى

رع .

وحصل اللقاء بين تى وبين الملك ولكنها فشلت مثلنا ، ورجعت
إلى طيبة خائبة الرجاء ، ثم ساءت حالتها الصحية وماتت تاركة وراءها
تاريخا ملكيا بالغ الروعة .

ومضت الأحوال من سىء إلى أسوأ حتى نفضت جميع الأقاليم عنها
الولاء للملك ، وبتنا محاصرين فى سجن اسمه أخت آتون نحن وإلهنا

الواحد ا. وشعر كل واحد بدنو الكارثة إلا إختاتون الذى جعل يقول بكل ثقة :

— لن يخذلنى إلهى !

وإذا بكاهن آمون الأكبر يفتحم المدينة معتمدا على قوة لا قبل لنا بها . وكنت أنا أول من تسلل إلى قصره الكاهن . ودهشت وأنا أتفرس فى وجهه وهو متنكر فى زى تاجر . وقلت له :

— لماذا تتخفى وأنت تعلم أن الملك لا يؤذى أحدا ؟

فتجاهل قولى وقال لى بلهجة حازمة :

— دبر لى لقاء مع رءوس الرجال ..

واجتمع بنا فى حديقة قصر الملكة الراحلة تيبى ، ولم يخف عنا أنه يتكلم من موقع القوة ، وأنه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء ، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنه حية تسعى تحت أرجلنا . وقد حرت فى تفسير سلوك الرجل لأننى لم أكن أحسن به الظن . واستشففت وراءه حقيقة لم يبح بها وهى أنه لم يكن واثقا من ولاء كل جيوش الأقاليم ومشققا من مغبة فوضى عسكرية ضارية تنتهى بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن . غير أننى اقتنعت بأن الخطر الذى يتهدهده لا يقل عن الخطر الذى يتهددنا ، وأن مصر هى الخاسرة فى الحالين . ولم يتقوض الاجتماع بذهابه . شعرنا جميعا بأننا مطالبون باتخاذ قرار .

ورغما عنى وجدتنى أسأله مقاطعا لأول مرة :

من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك ؟

فضيق عينيه الباهتتين ثم قال :

— لم أعد أتذكر ، مضت أعوام وأعوام ، ولكن كان بينهم

حور محب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا ، على أى حال كان
حور محب أول المتكلمين فقال :

— إنى صديقه وقائد حرسه !

وقلب عينيه البنيتين فى وجوهنا وقال بهدوء وتصميم :

— لا مفر من حسم الموقف لإنقاذ البلاد .

ولم ينبس أحد باعتراض . وطلبنا مقابلة رسمية . وأدينا فروض
التحية التقليدية أمام العرش . وكان إخناتون يتسم أما نفرتيتى فتبدت
جامدة عاطلة من تألقها المألوف . وابتدروا إخناتون :

— ليس وراءكم خير !

فقال حور محب :

— جئنا من أجل خير مصر يامولاي .

فقال بهدوء ويقين :

— إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله .

فقال حور محب :

— البلاد على شفا حرب مهلكة ، ولا بد من قرار حازم لتجنيبها

ويلات الخراب .

فسأله الملك :

— هل لديكم اقتراح ؟

فقال :

— لا مفر من إعلان الحرية للأديان ، وإصدار أمر لجيش الحدود

بالدفاع عن الإمبراطورية ..

فنهز الملك رأسه المتوج بتاج القطرين وقال :

— هذا يعنى الارتداد إلى الكفر وما يحق لى أن أصدر قرارا إلاتنفيذا
لإرادة إلهى الخالق الواحد .

فقال حور محب بجرأة :

— من حقتك يا مولاي أن تحتفظ بعقيدتك ولكن عليك فى تلك
الحال أن تتنازل عن العرش ..

فقال بإصرار وعيناه تتوهجان كضوء الشمس :

— هيهات أن أرتكب خيانة فى حق إلهى المعبود بالتخلى عن
عرشه !

وحول إخناتون عينيه إلىّ فشعرت بأننى أغوص فى أعماق الجحيم
ولكننى قلت :

— إنه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك .

فقال الملك بأسى :

— اذهبوا بسلام .

ولكن حور محب قال :

— بل نترك لك مهلة للتأمل .

وغادرت قاعة العرش مع من غادرها وأنا أعانى من وخز قلق لعله لم

يفارقنى حتى اليوم . وفى أيام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة .

هجرت نفرتيتى القصر الفرعونى واعتزلت فى قصرها شمالى أخت

آتون . وقابلتها مستطلعا ولكنها قالت لى بإيجاز غامض :

— لن أغادر قصرى حتى الموت .

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك . أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه

سمنخ رع شريكا له على عرشه ، غير أن كهنة طيبة بايعوا توت

عنخ آتون الأخ الثانى ملكا معلنين بذلك عزلهم لسمنخ رع وإخناتون نفسه ، وبدا أنه لا خيار فإما التسليم بالأمر الواقع وإما الحرب . وقابل حور محب الملك فوجده مصرًا على موقفه ، وقال له :
— لن أخون إلهى ، وهو لن يخذلنى ، سأصمد فى مكانى ولو وحدى ..

فقال له حور محب :
— نستأذنك يا مولاي فى هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة ، بذلك تعود الوحدة للبلاد ويختفى شبح الخراب ، وأتعهد لك بأنه لن يمسك الأذى حيا أو ميتا ، وما دفعنا إلى ذلك إلا الرغبة فى إنقاذ البلاد وإنقاذك .

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس :
— افعلوا ما بدا لكم ، لن ألوكم على ضعف إيمانكم ، ولست فى حاجة إلى حماية أحد فاللهى معى ، وهو لن يخذلنى ..
ونفذنا قرارنا فى وجوم وحزن ، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتى خلت من الأحياء ، إلا إخناتون فى قصره ، ونفرتيتى فى قصرها ، ونفر من الحراس والعبيد . ومالبث أن غزا المرض الجسد الذى لم يعرف الراحة مذ شب على قدميه ، فمات وحيدا ، وكان يغمغم وهو يحتضر :

يا خالق الجرثومة فى المرأة
وصانع النطفة فى الرجل
ومعطى الحياة للوليد فى بطن أمه

لا يعرف الوحدة من يذكرك
وإذا غاب عنك الوعى
صارت الأرض فى ظلمة
كأنها موات

وسكت آى ليسترد ذاته من تيار الذكريات ، ثم نظر نحوى بعطف
وقال :

— هذه هى قصة إخناتون الذى يدعى اليوم إذا ذكر بالمارق وتصب
عليه اللعنات . ولا أستطيع أن أهون من الخسائر التى حاقت بالبلاد بسببه
فقد خسرت إمبراطوريتها ومزقتها الخلافات ، ولكنى أعترف لك بأننى
لا أستطيع أيضا أن أنزع من قلبى حبي له وإعجابى به ، فلندع الحكم
النهائى عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدى .

* * *

وغادرت قصر الحكيم آى وأنا أعتقد أن الحكم النهائى عليه هو أيضا
لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس .

« حور محب »

متوسط القامة ، متين البنيان ، ذو مظهر يوحى بالقوة وصدق العزيمة ، سليل أسرة كهنوتية متوسطة بمنف غنية بمن عرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط ، وكان أبوه أول من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة « رئيس الحيات » فى بلاط أمنحتب الثالث . وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذى احتفظ بوظيفته كقائد للحرس فى العهد الجديد ، ووكّل إليه بمهمة القضاء على الفساد فى داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز فى ذلك نجاحا مرموقا . وقد شهد له كاهن آمون الأكبر ، وصدق على ذلك الحكيم آى ، بأنه كان بطل اللحظة الحرجة فى مأساة العهد البائد . استقبلنى فى قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر ، وأنشأ يحدثنى عن « المارق » قائلا : — كان رفيق صباى ، وصديقى ، قبل أن يصير مليكى ، ومذ عرفته وحتى الساعة التى ودعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله فى هذه الدنيا سوى الدين .

وراح يستجمع أفكاره مليا ثم استمر قائلا : — أوليته الاحترام الذى يستحقه مذ عرفته ، ذلك أنى ربيت على تقديس الواجب ، وعلى وضع الشيء فى موضعه بصرف النظر عن عواطفى الشخصية ، وكان هو ولى العهد وكنت أنا أحد رعاياه ، فلزمنى احترامه ، أما باطنى فقد احتقره ، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة فى وجهه وجسده ، ولم أتصور أن أكون له صديقا حقيقيا ،

غير أن الواقع أتنى صرت صديقه بكل معنى الكلمة . وإنى لأتساءل كيف كان ما كان ؟ . ربما لأننى عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهدبة ذات السحر النافذ . كان ذا مقدرة عجيبة على اصطبياد القلوب وأسر النفوس ، ألم يهتف له الشعب وهو يدعو إلى الكفر بآلهة الآباء والأجداد ؟ . وكنا — هو وأنا — على طرفى نقيض ، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسد فى صورة صداقة متينة ، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر . إنى أسمعوه وهو يقول لى باسمنا : — حور محب ، أيها الوحش المتعطش للدماء ، إنى أحبك .

وعبثا حاولت أن أعثر على شىء مشترك بيننا . دعوته كثيرا إلى الصيد وهو رياضتى المفضلة فكان يقول لى :

— لا تدنس الحب الذى ينبض به قلب الوجود .

لم يكن يعجب بالزى العسكرى فكان يرمق سروالى القصير وقلنسوتى وسيفى ويتساءل متهكما :

— أليس عجيبا أن يدرب أناس مهذبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك ؟

حتى قلت له مرة :

— ترى مارأى جدك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول ؟

فهتف :

— جدى العظيم !، أقام عظمته على هرم من جثث المساكين ، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون ، فأى جد عظيم وأى إله دموى ..
وقلت لنفسى إنه يقبل كصديق رغم شذوذ آرائه ولكن كيف يجلس

بها على العرش ١٩. لم أستطع أبدا أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر ، ولم أتحول عن رأيي هذا فى أى وقت من الأوقات ، ولا أستثنى من ذلك أهنا الأوقات وأحفليها بالسرور ، بل لعله تبدى لعينى فى تلك الأيام السعيدة أوغل فى البعد عن هيبه الفراعنة ومجدهم الخالد . وحدث أن انتدبت لتأديب بعض العصاة فى طرف من أطراف الإمبراطورية قائدا لأول مرة لحملة عسكرية . وهناك أحرزت نصرا حاسما فرجعت بالغنائم والأسرى . ونلت الجزاء تكريما نبيلًا من مولاي أمنتب الثالث . وهنأنى الأمير بسلامة العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى . استعرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون فى الأغلال . رنا إليهم طويلا فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف فى أعماق نظرته . وأظلت وجهه غمامة كآبة وقال لهم برقة :

— اطمئنوا فلن يمسكم أذى !

وهاج خاطرى لأننى كنت على يقين من أنهم سيلقون ألوانا من التأديب حتى يتعودوا على النظام والعمل . ولما رجعنا معا سألتنى باسم :

— أنت فخور بما صنعت يا حور محب ؟

فقلت بصراحة :

— إنى أستحق ذلك أيها الأمير .

فتمتم فى غموض :

— يالها من مشكلة !

ثم ضحك قائلا فى دعابة :

— ما أنت إلا قاطع طريق يا حور محب !

ذلك كان ولي العهد المرشح للجلوس على العرش . على ذلك فقد
شدني إلى صداقته وحبه ، وأغراني دائما بمتابعة أفكاره التي لم أتأثر بها
قط ، كمن يتابع صوتا غريبا لا ينتمي للبشر . ومازلت حتى الساعة
أتساءل في حيرة كيف صادفته وكيف أحببته ؟! وبهذه المناسبة أذكر
مناقشة دينية جرت بيننا أمام خلوته بحديقة القصر الملكي . سألتني :
— لماذا تصلي يا حور محب في معبد آمون ؟

فأخذت للسؤال ، خاصة وأنتى لم أملك إجابة ترضيه أو ترضيني .
ولما وجدني صامتا سألتني :

— هل تؤمن حقا بآمون وما يقال عنه ؟

فتفكرت قليلا ثم قلت :

— لا كما يؤمن الناس به !

فقال بجديّة :

— إيمان أو لا إيمان ، ولا ثالث بينهما .

فقلت بصراحة :

— لأهتم بالدين إلا باعتباره من تقاليد مصر الراسخة .

فقال بثقة مثيرة :

— إنك تعبد ذاتك يا حور محب .

فقلت بتحد :

— قل إنى أعبد مصر .

— ألم يساورك إغراء لمعرفة سر الوجود ؟

فقلت بمرارة :

— إنى أعرف كيف أمحق هذا الإغراء .

— يا للخسارة ، وماذا فعلت من أجل روحك ؟
فقلت متبرما بالمطاردة :

— إننى أقدس الواجب ، وقد شيدت لى مقبرة !
فقال متنهدا :

— أتمنى يوما أن تذوق سرور القرب .
فتساءلت فى دهشة :

— القرب ؟

— القرب من خالق الوجود الواحد .
فتساءلت فى شىء من الاستهانة :

— ولم يكون واحدا ؟
فقال بهدوء :

— إنه أقوى وأجل من أن يوجد شريك له .

ذلك الشاب المهزول ، الذى يتجنب القصر ويهيم بالحديقة .
المولع بالأزهار والغناء والطيور مثل فتاة مهذبة . لم يخلق أنثى ؟ . لقد
همت الطبيعة بأن تفعل ذلك ولكنها عدلت عنه فى اللحظة الأخيرة لسوء
حظ مصر .

وسكت حور محب وقتا ثم واصل الحديث :

— وتوكد مصيره بزواجه من نفرتيتى . ظهرت لأول مرة فى القصر
الفرعونى فى الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس الملك على
العرش فبهرت الأعين بجمالها وشخصيتها ، واشتركت فى الرقص مع
بنات السادة ، وغنت بصوت رخيم :

أخى ما أحلى الذهاب إلى البحيرة
والاغستسال على مرأى منك
لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق
حينما يتل ويلتصق بجسدى
تعال وانظر إلى

ولا أشك أن آى وتى زوجته أحسنا تقديم كريمتهما ، ومهدا لها
الطريق إلى العرش . ولا تنس أن آى كان معلم الأمير ومرشده فلاحته له
ولا شك الفرص للتأثير فى شخصية ضعيفة متهالكة وإيقاعها فى
الشرك . على أى حال فازت نفرتيتى فى الحفل بإعجاب الأمير وأمه
الملكة تيبى معا . وسرعان ما زفت نفرتيتى إلى الأمير . وأذكر أن كاهن
آمون قال لى فى حفل الزفاف :

— لعل الزواج يصلح ما أفسده تهور الشباب .
فقلت له ببرود :

— إنها كما ترى من أصل شعبى ، وما كانت تحلم بالعرش ، ولن
تجازف أبدا بإغضاب زوجها الملك !

وقد ساءلت نفسى ترى أكانت نفرتيتى ترضى بالأمير زوجها لو لم يكن
وليا للعهد ؟! الحق أنه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أى فتاة ولو
كانت فلاحه ساذجة . وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحديا للتقاليد .
وعلمت متأخرا بعض الوقت بادعاءاته الغريبة عن تجلى إلهه له وسماع
صوته ، ورأيت المستقبل يتسريل بليل بهيم . وبازدياد التوتر غضب
الملك أمنتحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية .

هنا حدثنى بإسهاب عن مناقشاته الدينية، واتصاله بالرعايا وتبشيرهم
بالمساواة والحب والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدثنى به
الحكيم آى .

* * *

وقال معلقا على الأحداث :

— ولأول مرة ، ورغم الصداقة والولاء ، تمنيت أن أقتله بسيفى قبل
أن يجلب علينا الخراب . والحق أنى تمنيت قتله دون أن أضمر له أى
شعور بالكراهية . ومات أمنتب الثالث واستدعى الأمير للجلوس على
عرش تحتمس الثالث . وتولى العرش ودعا الرجال واحدا فى إثر واحد
ليعرض عليهم دينه . ولما جاء دورى قال لى :
— لا بد من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معى
يا حور محب .

وبصراحتى المعهودة قلت له :

— مولاي ، موقفى من الآلهة معروف لديكم ، ولكنى رجل
الواجب وخادم العرش ، وإنى أعلن إيمانى بالإله الواحد إخلاصا
لعرشك وخدمة لوطنى ..
فقال باسمنا :

— حسبى ذلك الآن ، لا أحب أن يخلو قصرى منك يا حور محب ،
وسوف تتلقى رحمة الإيمان ذات يوم .

وبدأت حياة جديدة فى خدمة ملك جديد وإله جديد ، وبإخلاص
كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره . ولكن
لا مفر من الاعتراف بأن الملك تكشف عن قوى خفية لم أعرفها فيه من

قبل . رغم الضعف الجسدى والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا تدرى من أى مجهول استعارها ، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة ، وحطم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويد . وتكشفت نفرتيتى عن ملكة كأنما لم تخلق إلا كي تكون ملكة عظمى مثل تىي وحششبسوت ، فكانت هى المدبرة لشئون الملك على حين تفرغ هو لرسالته . بيد أنها بدت لى — وللجميع — مؤمنة بالدين الجديد إيماناً فاق للأسف كل تصور . والحق لقد قيل عن هذه المرأة كل ما يمكن أن يقال ، وأنا أكره شخصياً ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية ، ومع ذلك فإن إيمانها يبقى لغزاً يطلب حلاً . أحياناً لم أشك فى صدقها ، وأحياناً أخرى ساورتنى شكوك . هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع ؟ . هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا ؟ ، أكان لأبيها فى ذلك دور خفى لعبه بيد ابنته ؟ . وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب ولكنها خيبت رجاءهم فصبوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة . إنهم آمنوا بضعف إخناتون ولم يتصوروا به قدرة على التحدى أو النضال أو الابتكار . من أجل ذلك اتهموا أمه تىي بأنها خالقة أفكاره كما اتهموا نفرتيتى بأنها سر عناده وصلابته . وهى صورة خاطئة . لك أن تدين الجميع ولكن لا شك أن جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه . وبالاتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة . وانغمس فى التبشير لدينه فى جميع الأقاليم . وهادنتنا أيام نصر وسعادة ورخاء حتى خيل إلى أن هذا الشاب المتهاقت قد قيض له أن يقوض بنيان الدنيا وأنه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنعه وتخطيطه . تابعت غزواته للأقاليم

واستقبال الجموع له بانبهار . آنست فى الجو قوة من نوع جديد تمارس
بجدارة مذهلة . ولكننى لم أخل أبدا من شك فى العالم الجديد الذى يتخلق
فيما يشبه الاكتساح . أيصمد هذا العالم للزمن ؟ . هل يمكن أن تتوازن
الأمر على سنة الحب والسلام والسرور ؟ . وأين تذهب حقائق الحياة
وتجاربها ؟ . وقالت لى نفرتيتى مرة وهى قارئة للأفكار :
— إنه ملهم ، ولن يخذله إلهه الذى أغدق عليه حبه ، وسيكون
النصر لنا ..

وأنفردت يوما بالوزير ناخت فى مجلس صفو وشراب ، وكنت
وما زلت مؤمنا بمقدرته السياسية ، فسألته :
— أتؤمن حقا بالإله الواحد ، إله الحب والسلام ؟
فقال بهدوء :
— نعم ، ولكننى لست مع مصادرة الآلهة الأخرى .
فقلت بارتياح :
— حل وسط ، أئتم تشر عليه به ؟
— بلى ، ولكنه يعتبره كفرا .
— ونفرتيتى ؟
فقال بأسف !
— إنها تتكلم بلغته ..

ومضى يحكى لى فى إسهاب كيف انقلبت الأمور فى الداخل والخارج
دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آى .

ثم قال :

— وعند ذاك نصحته قائلاً : « علينا أن نغير من سياستنا » ، ولكنه كان يتصدى لأى خطوة توحى بالتراجع، وينتشى بالحماس، فقال لى :
— يجب المضى فى المعركة الإلهية حتى نهايتها، ولن يكون لها إلا نهاية واحدة هى النصر !

وربت على منكبى بعطف ثم واصل :

— لا تشارك التعساء إصرارهم على حب التعاسة !
ولما ازدادت الحال سوءاً تمنيت مرة أخرى أن أقتله بسيفى وأنقذ البلاد من جنونه . تمنيت أن أقتله باسم الحب والولاء . وتبين لى أن ما حسبه قوة جبارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ماهى إلا جنون أهوج يجب حصره وشكمه . وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تى ، واستدعتنى إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون . وقالت لى :
— سيكون لى حديث طويل مع الملك .
فقلت لها بكل إخلاص :
— لعلك توفقين فيما فشلنا فيه .

فرمقتنى بنظرة كنت خبيراً بعمقها وسألتنى :

— هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأى جديد فى الموقف ؟
فأجبتها من فورى لسابق علمى بتأويلاتها للتردد الذى قد يسبق الإجابة :

— اقترحت يا مولاتى تغيير السياسة فى الداخل والخارج .

فقال بارتياح :

— هذا ما ينتظر من المخلصين أمثالك .

— إنه مليكى وصديقى كما تعلمين يا مولاتى ..
فواجهتنى بنظرة صريحة وسألتنى :
— هل تعدنى يا حور محب بالمحافظة على الولاء له فى جميع
الظروف والأحوال ؟
فقلت وعقلى يعمل بسرعة فائقة :
— أعذك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال .
فقالت بارتياح غير خاف :
— إنهم يطالبون برأسه، وإنك رجل القوة التى تحافظ عليه، وربما
سعوا إلى استقطابك عاجلا أو آجلا .

فكررت وعدى بالصدق والإخلاص . وقد حافظت على عهدى
عندما اقتنعت بأن خير وسيلة للدفاع عنه هى التخلّى عنه . وفشلت تبنى
فى مسعاها رغم ما عرف عنها من سيطرة كاملة عليه . وغادرت أخت
آتون لثموت فى حيرة أبدية . وضيق الخناق علينا فى مدينة الإله
الجديد ، وتوكد لدى أن الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلا
عن محبوبه المختار . وذقنا الحرمان وتهددنا الموت من الشمال
والجنوب . ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعله زاده إصرارا وعنادا ،
ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدثه :
— لن يخذلنى إلهى يا ضعيف الإيمان .

وكلما رأيت وجهه المتألق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من
جنونه . لم تكن معركة دينية كما تجرى فى الظاهر ولكنها كانت
فوضى جنونية تحترق فى رأس رجل ولدق فى هالة من الشذوذ . ثم كانت

زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا ، وقد قبض على يدي بقوة وقال لى :

— إنك رجل الواجب والقوة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك .

والحق أنى أكبرت فى الرجل ارتفاعه عن التشفى والانتقام وسعيه إلى تجنب البلاد ويلات المزيد من الخراب . وطلبنا المقابلة . كانت عسيرة وأليمة وحزينة . كنا ننفذ عنا الولاء نحو الرجل الذى لم يكن لشيء سوى الحب . الذى صور له جنونه حلما عجيبا أراد لنا أن نشاركه فى سعادته الوهمية . واقترحت عليه إعلان حرية الأديان والدفاع الفورى عن الإمبراطورية . ولما رفض اقترحت عليه أن يتخلى عن العرش ويتفرغ لنشر دينه . وغادرناه ليعيد النظر فى الموقف كله . وقد أشرك سمنخ رع فى عرشه على حين هجرته نفرتيتى ولكنه لم يتراجع خطوة عن إصراره . وقررنا التخلي عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن ، بعد الاتفاق على ألا يتعرض له أحد — ولا لزوجته — بأذى . وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطع لها قلب مصر ، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة عريقة !

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقى تأهباً للذهاب . غير أننى سألته :

— وكيف تفسر هجر نفرتيتى له ؟
فأجاب دون تردد :

- لقد أدركت ولا شك أن جنونه جاوز خط الأمان فهجرت قصره
محافظة على حياتها !
- ولم لم تهجر المدينة معكم ؟
فقال بازدرأ :
- كانت على يقين من أن الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصلي في
الجريمة الكبرى !
- فسألته وأنا أحييه مودعا :
- وكيف مات ؟
- عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة ، واهتز إيمانه ولا شك بتخلي
إلهه عنه ، فمرض أياما قليلة ثم مات .
- فسألته بعد شيء من التردد :
- كيف تلقيت خبر موته يا سيدى القائد ؟
- فاجابنى متجهما :
- لقد قلت كل شيء !

« بك »

يعيش المثل بك فى جزيرة نيلية على مبعدة ميلين جنوب طيبة . فى بيت أنيق صغير يقع فى وسط مزرعته الصغيرة ، وفى شبه عزلة . ورغم ما يشهد له به من تفوق فى فنه إلا أنه لم يدع للمشاركة فى بناء الدولة الجديدة لما عرف عنه من ولاء لسيده السابق ، بل ولما يتهم به أحيانا من الكفر بالآلهة القديمة . وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره ، طويل القامة نحيلها مع قوة ونشاط ، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاها كآبة . تبسم وهو يقرأ رسالة أبى ثم نظر إلى قائلا :

— انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم !
وقد عرفته وأنا صبى أتلقى أصول الصنعة فى مدرسة أبى « من »
المثال الأكبر للملك أمنتحب الثالث . فذات يوم زارنا صبي محمولا على محفة ، فهمس أبى فى أذنى :

— ولى العهد !

رأيت صبيا يماثلنى فى العمر ، نحिला ضعيفا ، ذا نظرة شديدة التأثير ، بسيطا بشوشا ، مغرما بلغة الأحجار المعجزة . جاء ليشاهد ويتعلم ، ويحاور فى ألفة محبة سرعاناً ما تنسيك أنك تحدث ابناً من سلالة الآلهة . واطب على زيارتنا فى أيام معينة فنشأت بينه وبينى صداقة ، باركها أبى فخورا وسعدت بها أنا غاية السعادة . وجعل أبى يقول لى عنه :

— إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يابك !

أجل كان كذلك . حتى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكر وإن فسره على هواه بأنه قوة شريرة حلت فيه . كلا ياسيدى . القوة الشريرة معششة فى قلوب الكهنة . أما سيدى ومولاى فلم يعرف الشر قلبه وربما كان ذلك سر مأساته . ولما تقدم به العمر سنوات أخذ يناقش أبى وهو مكب على صنع تمثال لأمنحتب الثالث . قال له وهو يتابع العمل بين أبى ومعاونيه :

— لكم تقاليد يا معلم تخنق الأنفاس ..

فقال أبى بفخار :

— بالتقاليد نقهر الزمن أيها الأمير .

فهتف مولاى بنشوة :

— مع مولد كل شمس يولد جمال جديد ..

واقترب منى وهمس :

— يابك ، لن يكون هذا تمثالا أميناً لأبى ، أين الحقيقة ؟!

الحقيقة التى عاش من أجلها ومات فى سبيلها . منذ وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب ، كأنما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها .

ويوما ما قال لى :

— إننى أحبك يابك ، أتقن درسك لتكون رجلى فى حقل الإبداع .

الحق ياسيدى أننى مدين لمولاى وسيدى بكل شئ ، بالدين والفن معا . إنه الذى وجه مداركى لدين آتون ، وفتح قلبى بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذى تجلى له صوته بالإيمان والحب :

تضىء الأرض بنورك
فتنجلي عنها الظلمات
ياخالق الأرض والسماء
والإنسان والأنعام

وغمرنى السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة :
— أشهد يا أميرى ، أننى مؤمن باللهك ..
فقال بحبور :

— إنك ثانى المؤمنين بعد مرى رع ولكن ما أكثر الأعداء يابك .
وعلمت فيما بعد أن نفرتيتى آمنت معنا فى وقت واحد وهى فى قصر
أيها آى . وكان يحدثنى فى أوقات متباعدة عما يلقي من عناء بسبب
رسالته فكنت ألم بشذرات من الأحداث رغم عزلتى فى المحجر خارج
طيبة . وهدانى إلى الفن الحقيقى أيضا . فإن كان أبى هو الذى علمنى
الأصول فمولأى هو الذى وهبنى الروح . لقد وهب ذاته للحقيقة فى
الوجود والفن . من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للعالم
ولا يحسنون إلا لغتها المتبدلة ، ويقبلون معها ويدبرون معها ، ويهرعون
إلى أى مائدة مثل الصقور والغربان . مولأى نوع آخر ، اسمع إليه وهو
يناجى إلهه قائلا :

— ياخالق الحى والجماد ، خص بصرى بنورك ، وصدرى
بسرورك ، وقلبى بنبك الكونى العذب .

وأصغ إليه وهو يقول لى :

— احذر تعاليم الفن التى يريد أن يكبلنا بها الأموات ، اجعل حجرك
مشوى للحقيقة !

ويقول لى أيضا :

— لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبت بها ، انقلها بأمانة ، أبرزها بتقوى ، لا تسلط عليها الخوف أو السهوة أو الأمانى الكاذبة ، اعكس كل ما بى من نقص فى الوجه والجسد ليتجلى جمالك فى الحقيقة ! ذلك هو مولاي وأستاذى الذى لا يعيد نغمة قديمة ، الذى يبهز بالجديد الحى ، محطم الأوثان ، مقتلع التقاليد البالية من جذورها ، السابح فى بحر المجهول ، المنغمس فى نشوة الحقيقة . ويوم اعتلى العرش أعلنت إيمانى مرة أخرى بين يديه وتقلدت وظيفة « الممثل الأكبر للملك » . ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة ، ذهبت على رأس تمانين ألفا من العمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدينة عرفتها الأرض ، مدينة النور والإيمان ، أخت آتون . ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء والبحيرات المترعة ، آية آيات الفن والجمال التى انقض الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن .

وسكت مرغما ليجتر حزنه المقيم على رائعة حياته التى تنهاوى ساعة بعد أخرى ، وتفتت لتضيع فى زحمة تراب الأرض . واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلا :

— وكان لمولاي إنجازاه فى الفن أيضا فأبدع شعرا ورسما ، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة فى مناجاة الحجر ، وإليك سرا لا يعرفه إلا الأقلون ، فقد نحت لنفرتيتى تمثالا نصفيا آية فى الحقيقة والجمال ، لعله يوجد الآن فى القصر المهجور أو فى قصر نفرتيتى ، إن لم تكن انتقمتم منه يد التخريب ، وعندما هجره الملكة بغتة مخلقة فى قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى ، معربا بذلك عن خيبة أمله مع

الإبقاء على بقية التمثال رمزا لحب خالد ، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلا في لحظة بأس أخيرة . لقد كانا معا الرمز الحي للإله الذى هو أب وأم معا ، وكان اتحادهما عن حب جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث ، فكيف دهمتنا بهجر الرجل فى اللحظة الأخيرة ؟! لم لم تبق إلى جانبه حتى النهاية ؟. لقد اتهمها أعداؤها بأنها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانا مناسبا فى الدولة الجديدة ، ولكنها لم تخطب مودة أحد ، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحول إلى سجن . كلا ، لا تنتمى مولاتى إلى الانتهازين ، ولكنى أعتقد أن إيمانها اهتز لموقف الإله اللامبالى من الأحداث ، فهجرت العرش والعقيدة فى ساعة بأس سوداء . أما مولاي فلم يتزحزح عن إصراره قيد حبة رمل . كيف لا وهو الذى تجلى للإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب ؟! لم يعد وجدانه يتسع لسماع صوت آخر ، ولم يعد يكثر لرأى أو نصيحة كما ينبغى لمنغمس فى الحقيقة . وهو لم ينهزم ولكننا نحن الذين انهزمنا ، فحتى أنا خامرتنى شكوك ، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش ، وأكثر عندما قرر الجميع التخلي عنه ، وجدته واقفا فى خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء والصمت . ولما رانى قال :

— سوف تذهب معهم يابك .

فقلت بغضب :

— لم يجرؤ أحد على مخاطبتى فى ذلك يا مولاي .

فقال باسم :

— ولكنك ستذهب يابك .

فقلت بحماس :

— سأبقى إلى جانب مولاي إلى الأبد .

فقال بركة :

— ستذهب مختاراً أو مكرها ..

ولذت بالصمت فخامرني الشك من جديد فسألته :

— مولاي ، أيمكن أن ينتصر الشر ؟

فرأيته يغيب ثم يرجع ليقول لى :

— الخير لا ينهزم ، والشر لا ينتصر ، ولكننا لا نشهد من الزمان
إلا اللحظة العابرة ، والعجز والموت يحولان بيننا وبين رؤية الحقيقة .
وراح يترنم بصوت عذب :

إنك فى قلبى

وليس هناك من يعرفك غير ابنك

فأنت الذى علمته

والأرض فى قبضة يدك

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه لحظة فلم يفرط أبداً فى ناموسه الأسمى
وهو الحب . فحتى فى تلك الساعة التى رأى فيها الهرم الذى شيده
يتهاوى حجراً فى إثر حجر ، ورجاله ينضمون إلى أعدائه ، وزوجته
المحبوبة تهجره دون كلمة وداع ، حتى فى تلك الساعة المنحوسة لم
يعرف قلبه الكراهية أو الحقد ، ذلك الرجل الذى ترفع حتى عن العقاب
المشروع ، الذى هام بالإنسان والحيوان والجماد . انظر يا سيدى ،
لقد تولى الملك فى عصر الرخاء ، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب
محب مطيع ، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما
(م ٥ — العائش فى الحقيقة)

عزت عليه ، ولكنه أعرض عن ذلك كله ، واهبا ذاته للحقيقة ، متحديا قوى الشر والأنانية والطمع ، فضحى بكل شيء وهو يتسم . وقد سأله يوما بعد أن ذرت قرون الشر والهمجية :

— مولاي ، لم لا تلجأ إلى القوة دفاعا عن الحب والسلام ؟
فقال لى باسم :

— لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة فى البطش وسفك الدماء ، ولست منهم يابك .

ولن أنسى عطفه على شخصى حينما أنس منى ميلا إلى « موت نجمت » أخت زوجته فسعى إلى تزويجى منها ، وكيف واسانى عندما أبت الزواج منى قائلا :

— إنها مثل الحداة تنتظر فرصتها !

واستفسرت عما يعنيه قوله ولكنه لم يزد . وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة ، ووجدت رفيقا مصمما فى كاهن الإله الواحد مرى رع ، ولكن الحكيم آى قابلى وقال لى :

— إننا نهاجر لصدهجوم لا قبل لنا به دفاعا عن حياته ، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان ، فإنى حموه ومعلمه !
فقلت :

— أيها الحكيم ، إن بقائى لن يغير من الأمر شيئا .

فقال :

— ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمس الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه فى المدينة سوى نفر من الخدم .

هكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبي يتمزق ، وما زال يتمزق حتى الساعة . وما زال الشك ينخر في إيماني رغم قول مولاي الحكيم ، فأحيانا أصلى للإله وأحيانا أضرب عن الصلاة . ولما بلغني نبأ وفاته تجددت أحزاني وبكيت حتى صفيت ماء عيني . وقد حدثني قلبي بأنه لم يمت ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة . وها أنا أعيش بلا هدف أو سرور في انتظار الموت مثل مدينتي الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن .

« تادوخيا »

هى فى الأصل ابنة توشراتا ملك ميتانى أصدق صديق للعرش المصرى . تزوج منها أمنتبب الثالث فى أيامه الأخيرة ، وهو فى الستين وهى فى الخامسة عشرة ، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش . وهى تعيش اليوم فى قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد . وقد استقبلتنى بناء على توصية من حور محب . فى الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة . ولقيتها فى حجرة فاخرة وهى تجلس على كرسي من الأبنوس المطعم بالذهب . شجعتنى بابتسامة وراحت تروى قصتها قائلة :

— عاشرت الملك أمنتبب الثالث فترة قصيرة ، فى جو مشحون بالغيرة والحقد . وعجبت للملكة العظمية تى ، كيف تبوأ مركزها الرفيع ، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة فى حريم أبى الملك العظيم توشراتا . وعجبت أكثر لمنظر ولى العهد الذى كنت أراه فى الحديقة ، أى مخلوق هزيل قبيح يشبر الاحتقار أكثر مما يشبر العطف . وساءت صحة الملك الأب فاتهمنى الحاقدون بأننى المسئولة عن ذلك ، والحق أنى قرأت النهاية القريبة فى صفحة وجهه المتغضن منذ الليلة الأولى . ورحت أفكر هل يرثنى قريبا ذاك الصبى الحقيق ١٩ . وقلت لنفسى إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل ، فهو عظيم ومرح وذو حيوية تناقض سنه وصحته . وكثيرا ما كان الحديث يدور حول ولى العهد فى الحريم ، فنتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء ، وعدم

لياقته الواضحة للعرش ، وزهده المريب فى النساء . ووافتنا أخباره عن
هوسه الدينى وما يحدثه ذلك من متاعب لوأديه وما أثاره بين الكهنة من
قلق ومخاوف . وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز فى وجداننا ،
فهجوم النساء اليومية تغطى على شئون الدولة ، إلاموت الملك الذى هز
الأعماق وفرض علينا طقوسا لا طاقة لنا بها . واعتلى المخلوق الحقيق
العرش هو ونفرتيتى التى تزوجها فى حياة أبيه ، وآل إليه حريم أبيه .
وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة ولكنه لم يقترب منا حتى
شاع بين النساء الآيات من شتى الأمم الانحلال والشذوذ . وتساءلت
امراة :

— لماذا لا يهتم بنا ويكف عن معاركه الدينية الويلة ؟

فاجابتها أخرى :

— لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء ..

ومع ذلك فقد دبت الغيرة فى قلب نفرتيتى ، فقررت أن تزور الحريم
للتحية والتعارف . وخمنت كل امراة الباعث الحقيقى وراء الزيارة وهو
أن ترانى أنا عن قرب ، وذلك لماذا ذاع فى القصر عن جمالى وشبابى .
كنت الوحيدة التى تماثلها فى العمر ، وتنافسها فى الجمال ، وتتفوق
عليها فى الأصل إذ أننى كريمة ملك على حين أنها ابنة رجل من الشعب
يدعى آى ، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك ، وأول
من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما آذنت شمسها بالغروب . جاءتنا
الملكة الجديدة بين صفين من الجوارى ، وحيثنا امراة امراة تبعنا
لأقدميتنا فى الحريم ، وعندما جاء دورى — وكان الأخير — ثقبتنى
بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها فى أدب وتحد معا ، حتى تجلى الركود

فى ماء وجهها . من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تبنى عندما
نبهت ابنها الملك الهزيل إلى « واجبه » نحو حريمه ، وخاصة تادوخيبا
ابنة الملك الصديق توشراتا .

لم تغفر لها تدخلها ، واشتعلت غضبا حينما أذعن الملك لإرادة أمه
المحبوبة فقرر زيارتي . وكما تقضى التقاليد انتظرتة فى حجرتي فوق
سريرى المطعم بالذهب ، عارية تماما ، غير مخفية حسنا من
محاسنى . وأقبل شبه عار إلا من وزرة قصيرة تطوق وسطه ، فجلس
على طرف السرير باسم فى رقة مجللا بهدوء غير طبيعى . وهمس
متسائلا :

— أيسعدك أن تنجبنى لى وليدا ؟

فقلت وأنا أغالب تقزى :

— إنه الواجب يا مولاي !

فحارت فى عينيه نظرة بائسة وهمس :

— إنى أبحث عن الحب فهو واجبنى الأول والأخير .

فسألته بجرأة :

— وهل ترغب فى عن حب يا مولاي ؟

فربت ظهر يدي بعطف وقال :

— لا عليك !

ولثم جبينى ثم غادر الغرفة كما جاء . ولم أبح بسر الليلة لأحد فظن
النساء أن نفرتيتى قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل . وكرت
الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطربة فى الخارج حتى صدر القرار ببناء
مدينة جديدة . وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون ، وسعد جميع من

حولنا ، ونبذنا فى جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة ، دافعة للشذوذ ، ولما عرف أن الملك الأبله يعالج الخطايا بالحب لا العقاب ، انتشر الفسق بين الجنود والنساء ، وأهدرت جميع القيم . وراح الملك ينشر دينه الجديد فى الأقاليم ، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد بغير إيمان حقيقى ، حتى خيل إلى أنه دين بلا مؤمنين ، وأنه كون أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال . ولم أتصور أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحد ١ . إن كل مدينة فى حاجة إلى إله يعنى بشئونها ، وكل نشاط إنسانى فى حاجة إلى إله متمرس فيه . وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب ؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمه به . وكان يلقي على الجموع شعره ثم ترنم زوجته بإنشادها ، فحل محل العرش المعبود فرقة جواله من الشعراء والمطربين ، وتلاشت هيبة الفراعنة . وكان لا بد أن يقع ما وقع ، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر ، وتتابع المصائب فى داخل البلاد كما فى الإمبراطورية ، وصمد أبى الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل فى طلب النجدة حتى سقط مدرجا بدمه فى الميدان دفاعا عن ملك أبله . وأحسن أناس الظن به فحسبوه شاعرا نبيلًا أخطأ القدر بإجلالته فوق العرش . أما الحقيقة فهى أنه كان مخلوقا غريبا ، لا هو ذكر ولا هو أنثى ، يؤرقه الشعور بالنقص والهوان ، فجر الناس إلى الهوان ، وأعلن شعار الحب ولكنه أشعل فى القلوب البغضاء والحقد والفساد ، فمزق وطنه وضيع إمبراطوريته . وجارته فى جنونه المرأة الداهية نفرتىتى لتستأثر بالسلطة ، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال . وقد أقنعت الجميع بأنها وزوجها يشكلان أجمل

صورة للحب والوفاء ، كانا يتبادلان القبل أمام الجموع فى شوارع
أخت آتون وفى لقاءات الأقاليم . والحق الذى يؤمن به نساء القصر كافة
أنه لم تقم بينهما علاقة زوجية على الإطلاق ، وما كان بوسعها أن
يقيمها ، ومارست حبها متعدد النزوات مع المثال بك والقائد
حور محب والقائد ماى وغيرهم ، ومنهم أنجبت بناتها الست . بل قد
تھامس بعض الجوارى بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة
تبنى !..

ولاذت بالصمت وهى تلاحظ ما ارتسم فى وجهى من آى الذهول ،
ثم واصلت :

— وعرف بيننا ذلك كحقيقة لا شك فيها ، وعرف أيضا أنه أنجب
منها بنتا ، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها ، وشهدت أكثر من جارية
بأنها رأت الفعل رؤىة العين ، ولم يغب ذلك عن نفرتيتى ، وبسببه
تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر . المشكلة أن كثيرين
لا يتصورون أن الرجل الذى زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن
هزيل تافه لا وزن له . لكنها الحقيقة التى يجب أن تعرف وأن تسجل .
ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة فى التاريخ لمضى فردا حقيرا فى أزقة
طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان ، ولا غرابة أن يستطيع
معتوه — إذا جلس على العرش — أن يخرب إمبراطورية ! . ولولا أن
نفرتيتى راقى فى عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة
المحترقات .

وقبل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة
الموشكة على الغرق ، ولكن النقاش احتد بينها وبين نفرتيتى ، ولم

تتورع الملكة الشابة عن اتهام العجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش ،
ولكن إخناتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعا حارا ،
فغضبت نفرتيتى وأصرتها له فى أعماقها ، وانتقمت فى اللحظة الحرجة
فهجرته فجأة قبل أن يقرر رجاله التخلّى عنه ، وحاولت استرضاء الكهنة
لتجد لها موقعا فى الدولة الجديدة ، وربما طمحت أن تكون زوجة
لتوت عنخ آمون ، ولكنهم وطئوا مسعاها بالنعال ، ولولا نفوذ عشيقها
القديم حور محب لمزقوها إربا .

صمتت تادوخيبا وهى تبتسم بازدراء ثم ختمت حديثها قائلة :
— هذه هى قصة المعتوه وديانته الخرقاء !

« توتو »

— لم أكفر باللهي آمون قط ، ولم أنضم إلى قافلة المنافقين والانتهازين ، ولكنني خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأنكون عينه اليقظة في القصر ، ويده الضاربة عند الضرورة .
هكذا بادرني توتو وزير الرسائل في عهد إخناتون دافعا عن نفسه تهمة النفاق التي تحلق فوق رجال إخناتون . وقد قابلته في مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل في عهد توت عنخ آمون كما شغلها في عهد أمنحتب الثالث . وهو رجل دين ريان الوجه جاحظ العينين عنيف الأعصاب . ودون تردد راح يعطيني تصوره عن المأساة .
قال :

— امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام ، فلم يتسلل إليها الخور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته في العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول . وقد اتبع الملوك العظام معنا — نحن كهنة آمون — سياسة جديدة . عرفوا لآمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرا لجميع الآلهة ، وفي الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم ، ليضمنوا إخلاص الجميع ، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازنا يضاعف من قوة العرش واستقلاله . ولم تصادف تلك السياسة هوى في نفوسنا ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا . ولما ولي العرش المارق وجد الطريق أمامه واضحا ، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزما بمنهج آبائه وأجداده ،

ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة . لم يكن كأحد من سابقه فى القوة أو الحكمة . وكان واعيا بضعفه وقبحه وأنوثته ، ولكنه أوتى من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد ، فقرر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلها يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلها وهميا يتخذة قناعا لظموحه . ومضت تبلغنا أنباء عن معجزات الصبى الذى تفوق قواه سنة الصغير ، حتى عرفنا حكاية الإله الجديد الذى تجلى له ودعاه إلى الكفر بجميع الآلهة . وقلت يومها للكاهن الأكبر :

— إنها مؤامرة ويجب أن تقتل فى مهدها .

وبدا أنه لا يسلم بأنها مؤامرة فقلت :

— إنى أتهم الملكة تى والحكيم آى ، أما الغلام فلا مسئولية عليه .

فقال الكاهن الأكبر :

— لا أعفى الملكة من جانب من المسئولية ولكنها مسئولة الخطأ فى التقدير ، أما آى فقد تؤكد لى لأنه لا يقل عنا انزعاجا ..

ولم يسعنى إلا تصديقه فهو معصوم من الخطأ فقلت :

— إذن فنحن حيال كائن قد حلت فيه روح ست إله الشر فيجب اغتياله فوراً .

فقال الكاهن :

— الأمر لم يفلت بعد من يدى الملك والملكة ..

وآمنت بأننا سندفع ثمن ترددنا غاليا . وجعلت أدعو إلهى مرددا :

يا آمون أنت سيد الصامتين
الذى يأتى على صوت الفقير
عندما ناديتك فى محتسى
جئت لتخلصنى
يا آمون يا سيد طيبة إنك أنت
الذى تخلص من فى العالم السفلى
إذا ناداك إنسان
فإنك أنت الذى تحضر من بعيد .

* * *

ومضى يسرد لى الحوادث التاريخية كما سمعتها من قبل ، رحلة
الأمير فى الإمبراطورية ، عودته ، اعتلاؤه العرش .

* * *

وهنا قال معلقا :

— أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبعوا مراكزهم فى الدولة
الجديدة . لقد سقط الجميع بلا كرامة ، فأتاحوا للمكر الخبيث أن
ينفث سمه ويهلك الأرض ، ولا عذر لهم عن خيانتهم ، فهم مسئولون
جميعا عما حل بنا من خراب . قلت للكاهن الأكبر :
— لا جريمة بلا عقاب ، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق
والمارقة وآى وحور محب وناخت وبك ..

فقال :

— الوطن لا يحتمل مزيدا من الخراب .

فقلت بإصرار :

— لا بد من دم لنحظى برضا آمون .

فقال :

— إننى أدرى بما يرضى إلهى .

فصمت وباطنى يغلى بالحنق ، فإنى أو من بأن الجريمة التى تغلت من العقاب تكرس الإثم بين الناس وتزعزع الثقة فى العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد من الجرائم . وشد ما يسوءنى أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم ، كيف نوفر الأمان لمن شارك فى إلحاق الخراب بنا ؟

* * *

وواصل سرده للأحداث ، بناء أخت آتون ، الانتقال إلى المدينة الجديدة ، الانغماس فى نشر الدعوة .

* * *

قال :

— بت قريبا منه ، أعمل فى رحابه ، وأتلقى كالأخريين هذيانه ، فعرفته على حقيقته أكثر من ذى قبل . كان يمكن أن يكون شاعرا أو مطربا ، ولكنه جلس على عرش الفراغة ، فكانت الكارثة . قرر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة . أراد أن يقول لتحتمس الثالث « رغم قوتك ومهارتك العسكرية فإننى الأقوى » . لم يكن ملهما كما اعتقد البعض ولا مجنونا كما ظن البعض الآخر ، ولكنه حظى بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبيثاء فأجاد تمثيل دوره . تخيل أنه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه ، فعاش فى دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع ، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها

وأناسها ونصب نفسه إلها عليها معتمدا على سحر العرش وسيطرته على النفوس . من أجل ذلك تلاشى سحره لدى أول صدام حقيقى مع الواقع واجتاحه الفساد والتمرد والعدو وفر عنه الجبناء . وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تنمر من خوارق الأفعال والأقوال . وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل فى خلوته . كانت تتلبسه حال من الانفعال المفتعل . فيخرج من حافة الوعي غائضا فى المجهول ، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية ، ثم يعود رويدا إلى وعيه فيحدثنا عن إلهه الذى لن يخلذه أبدا . وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال آى وحور محب وناخت وأتساءل هل حقا يصدقون المهزلة ؟.. هل حقا جاز عليهم خبثه الأنثوى ؟.. كلا ، لقد تظاهروا بتصديقه لينال كل مأربه ، وما كشفوا عن أنفسهم إلا حين تهددهم الموت من الشمال والجنوب .

وحدثنى عن انقلاب الأحداث ، فساد الموظفين ، عذاب الناس ، تمرد الإمبراطورية ، تحرش الحيثيين بالحدود ، مضرع توشرانا .

قال:

— أغرقنى فيضان من الخوف على البلاد ففكرت جادا فى اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شره . وعثرت بلا كبير عناء على من تطوع لقتله فى خلوته قبل الشروق ، ويسرت له مخبأ فى الحديقة ، وكاد الرجل ينجح فى مهمته لولا أن أدركه فى اللحظة الأخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحق بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد . واستعنت

كثيرا بالسحر ولكنه لم يصب الهدف من سوء حظ البلاد ، ولعل الخبيت كان يلجأ إلى السحر المضاد .

* * *

وروى ماتلا ذلك من انتشار التمرد فى الأقاليم ، زيارة الملكة نيبى لأخت آتون ، اللقاء التاريخى بين كاهن آمون ورجال إخناتون .

* * *

قال :

— ولما يئس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة فى اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه فى عرشه ، ولكنى نجحت فى اغتيال الشاب بوسائلى الخاصة ، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفرتيتى نفسها فمات الشر ولكن بعد أن نفث سمه فى جميع الأوصال . وقد كان من سوء حظنا جميعا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتى زوجة له . حقا إنها امرأة قوية الشخصية راجحة العقل فائقة الجمال ، ولكنها مثله مريضة بالطموح ، فأمنت فى الظاهر بدينه ، وشاركتة فى الواقع مكره وخبثه . وعلى اليقين لم تكن تحبه وما كان فى وسعها ذلك ولكنها هامت بالقوة والسيادة المطلقة . ولعلها دليل آخر على الدور الخفى الذى قام به الداهية آى الذى كان يتلقى فى المناسبات هدايا الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تى من الشرفه الملكية فيحملها العبيد فى القدور إلى قصره . ولكن كيف تعامت المرأة الذكية عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطورية ؟ . وهل آمنت حقا برسالة الحب والسلام ؟! . الحق أنى لا أتصور ذلك ولا أسيغه ، ولكن لعلها غالت .

فى تقدير سحر العرش الفرعونى وتوهمت أنه السحر الذى يغنى عن العقاب والسيف وجيش الدفاع . ولعلها أدركت الخطأ فى وقت مبكر ولكنها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادير . ولما تخلت الحاشية عن الملك تخلت عنه متعلقة بأمل أخير ألا يغدر بها عشاقها . وأعتقد أن حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقبولها فى طيبة ولكنه رفض ذلك وأصر على الرفض . وقد مات المارق وما زالت هى تتنفس فى سجنها متجربة الأحزان والحسرات .

لو أن الذى خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدو من الحيثيين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل المارق اللعين ..

« تى »

هى زوجة الحكيم آى ، فى السبعين من عمرها ، صغيرة الجسم ، ممتازة فى صحتها بالقياس إلى عمرها ، حلوة المحضر . وقد تزوج منها آى عقب موت زوجته الأولى أم نفرتيتى فتلقتها تى وهى بنت عام أو عامين ، ثم أنجبت له موت نجمت . ولما رفع الحظ نفرتيتى إلى العرش اختارت تى ضمن حاشيتها ووهبتها لقب « مربية الملكة » . ولولا أنها كانت تحبها ما فعلت ذلك ، وهو ما يدل على أن تى أحاطت بنفرتيتى برعايتها وحبها وأنها لم تكن « امرأة أب » بالمعنى المألوف .

وقد سردتُ لها المعلومات التى حصلتها عن الأحداث التاريخية ، ثم قلت :

— لا داعى للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظا على وقتك وراحتك .

فقالت تى :

— لم أخالط الملك رغم قربى من زوجته ، ولعله لم يخاطبنى إلا مرات معدودة ، ولكن عذوبته لا تبرح القلب أبدا . وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجى آى الذى اختير لتعليمه . وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون ، ثم أذهلنا أضعافا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد . الحق أنه أذهلنى أنا وابنتى موت نجمت أما حبيبتي نفرتيتى فكان لها موقف آخر . ولكن علىّ قبل ذلك أن أعرفك (م ٦ — العائش فى الحقيقة)

بها ، إنها بنت ذكية ، وذات روح متوثبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينية ، ونضجها يفوق سنها بكثير ، حتى قلت يوما لزوجي آى :

— يخيّل إليّ أن ابنتك ستكون كاهنة !

وكان ينشعب بينها وبين موت نجمت ما ينشعب بين الأخوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة ولكن الحق كان دائما معها ، ولا أذكر أنها تورطت فى خطأ مرة ، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير . وكانت تتفوق فى تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتى من ردة فعل يتعذر إصلاحها . وجعلت تتلقى كلمات ولى العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون ، ثم تباغتتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد . وقالت لها موت نجمت :

— إنه كافر .

فقلت بيقين :

— لقد سمع صوت الإله .

فصاحت بها :

— وأنت أيضا كافرة !

كانت ذات صوت عذب ، وشد ما كان يسرنا أن نسمعها وهى

تغنى :

ماذا عساي أقول لأُمى

فكل يوم أرجع إليها بالطيور

أما اليوم فلم أنصب شباكى

لأن حبك قد ملكنى

وبعد إيمانها راحت تغنى للإله الجديد وحدها فى الحديقة ولا أحد
منا يريد أن يطرب لها ، ولكنى أذكر صوتها الذى اقتحم على حجرتى
ذات صباح وأنا أمشط شعرى :

يا حى

يا جميل يا عظيم

بك عم الفرح

وأترع الكون بالنور

هكذا كان قصرنا أول بيت يتردد فيه نشيد الإله الجديد . ودعينا
لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس أمنتب الثالث على
العرش . وسمح لنا باصطحاب بنتينا لأول مرة لشهود احتفال بالقصر
الفرعونى . وزينت البنتين لعلهما يروقان فى أعين صفوة الشباب ،
فارتدت كل منهما ثوبا طويلا فضفاضا ، وطوقت منكبيها بمعطف
مزرکش قصير ، منتعلة صندلا ذا سيور ذهبية . دخلنا قاعة لا تقل
مساحتها عن مساحة قصرنا كله ، مطوقة بالمشاعل ومقاعد المدعوين
على حين تصدرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات . وبين هذا
وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات ، وتنقل العبيد بين
المدعوين والمدعوات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة .
وقلبت عيني بين صفوة الشباب فتمنيت لابتى حور محب الضابط
الواعد وبك المثال الموهوب . ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى
نفرتي آتية من نخبة الحاشية ، حور محب وبك وناخت وماى ،
خاصة عندما أتاحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب
الملكين . وقد رقصت حبيبتى برشاقة آسرة ، وغنت بصوت عذب

فاقت به المطربات المحترفات . لعلى فى تلك الليلة شاركت ابنتى
موت نجمت غيرتها الصامته ، غير أننى عزيت نفسى قائلة « إذا تزوجت
نفرتيتى خلا الجو لموت نجمت وتجلى نورها دون مناس » . وبدافع
من حب الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتيتى لأكتشف أن تتجه
نظراتها فأدهشنى أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلمها الروحى ..
ولى العهد ! ونظرت نحوه فهالتنى غرابة صورته ورقته الأنثوية المثيرة
للدهشة . ولما التقت عيناي بعينيها همست لى :

— حسبته عملاقا !

ولكن انبهارها غطى على دهشتها ، ولم تكن تحلم بما يدخره لها
القدر . ورجعنا إلى قصرنا ، فقلت لزوجى آى :
— سيطرق بابنا الخطاب يا آى فدبر أمرك ..
فقال بهدوئه المألوف :

— الآلهة ترسم لكل مصيره .

وبعد مرور يوم أو يومين فاجأنى آى بقوله :
— الملكة تبنى ترغب فى مقابلة نفرتيتى ..
فأذهلنا الخبر ، وسألته :

— ماذا يعنى ذلك ؟

فتفكر مليا ثم قال :

— لعلها سترشحها لوظيفة فى القصر !

— ولكنك تعرف أشياء ولا شك !

فقال :

— كيف بمعرفة ما يدور فى رأس الملكة العظمى .

وأخذ يلقيها أصول الآداب المتبعة في لقاء الملوك ، وقلت لها :
— فليباركك آمون برعايته ..

فقالت بثبات :

— إننى أسأل الإله الواحد رعايته ..

فهتف بها أى بحزم :

— حذار أن تتفوهى بحماقة فى حضرة الملكة .

وذهبت نفرتيتى . ورجعت شديدة الانفعال فطوقتنى بذراعتها
وأجهشت فى البكاء ، أماآى فقال :

— اختارتها الملكة زوجة لولى العهد ا

عصف الخبر بأفئدتنا عسفا . سمت به حبيبتى نفرتيتى فوق الغيرة
والمنافسة . هاهى تفتح لنا باب الحظ السعيد لتنفيذ منه إلى الأسرة
المالكة . لقد أظننا حظها بجناحيه العريضين وحلق بنا فوق الجميع .
من أجل ذلك هنأتها من أعماق قلبى ، وكذلك فعلت موت نجمت .
وراحت تحدثنا عما دار بينها وبين الملكة العظمى ، ومن شدة تأثرى لم
أتابعها بالدقة المتوقعة ، وليس فى ذاكرتى اليوم إثارة منه ، وما أهمية
الحديث إذا قيس بالنتيجة التى انتهى إليها ؟ . وتم الزواج فى حفل رائع
أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث .
وصرنا جميعا ضمن الأسرة المالكة ، واختارتنى حبيبتى لوظيفة المربية
الخاصة لها ، وهو مركز فى القصر يلى مركز الأميرات مباشرة ا .
وبالزواج صارت نفرتيتى والأمير وحدة لا تتجزأ ، ولا يفرق بين نصفيهما
إلا الموت . وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات ،
ودبرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش ، وشاركته حمل

رسالته الدينية كأنها كاهنة مختارة حقاً بعناية الإله الواحد . صدقني لقد كانت ملكة عظيمة بكل معنى الكلمة . لذلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها في ذروة محنته . ولعله أول قرار اتخذته دون علمي فهرعت إليها في قصرها ، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء . ولم يبد عليها أنها تأثرت لحالي ، وقالت لي بهدوء :

— اذهبي بسلام ..

فقلت برجاء :

— إنهم يذهبون وقاية للملك من أى شر .

فكررت ببرود :

— اذهبي بسلام .

فساءلت في حيرة :

— وأنت يامولاتي ؟

فقالت ببساطة :

— لن أغادر هذا القصر .

فهمت بالكلام ولكنها قاطعتني بنبرة آمرة :

— اذهبي بسلام .

وغادرتها كأعس امرأة على وجه الأرض . وفكرت طويلاً فيما دفعها إلى الاختفاء ، فلم أهتم إلا إلى فرض واحد ، هو أنها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة ، على أن ترجع إليه بعد ذهاب الجميع . ولا أشك في أنها سعت إلى ذلك ولكنها منعت بالقوة . ولا تصدق أى تفسير آخر لهجرها القصر . سوف تسمع أقوالاً متضاربة ، وسيدلى كل رجل بما يؤكد أنه الحق ،

بيننا ينطق عن هواه . لقد علمتني حياتي ألا أثق في أحد ولا أصدق أحدا . وها هو الزمن يمضي وأنا أتساءل دائما أكان مولاي إخناتون يستحق تلك النهاية المحزنة ؟. كان النبيل والصدق والحب والرحمة فلم لم يبادل له الناس نبلا بنبل ، وصدقا بصدق ، وحبا بحب ، ورحمة برحمة ؟. لماذا انقضوا عليه كالوحوش يمزقونه ، ويمزقون ملكه كأنه عدو أثيم ؟!. ولقد رأيته في المنام منذ أعوام مطروحا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر في عنقه ، فاستحوذ عليّ شعور قوى بأنهم قتلوه قتلا مدعين كذبا أنه مات ميتة طبيعية .

وسكنت وهي تنظر فيما أمامها بأسى ، ثم تمتمت :
— لقد عاشرنا رجلا لا يتكرر .

« موت نجمت »

فى بدء الحلقة الرابعة ، جميلة رشيقة ، يشع من عينيها العسلتين ذكاء ، شعرت فى محضرها بوجود مسافة بينى وبينها لا يمكن أن تعبر . وهى ابنة آى وتى وأخت نفرتيتى ، وتقيم فى جناح خاص بها فى قصر آى . وثمة لغز رابض فى حياتها وهو أنها لم تتزوج رغم كثرة خطابها . وماكدت أجلس بين يديها وأبسط أوراقى حتى أنشأت تقول :

— قدر لنا أن نشارك فى مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبى الحكيم آى معلما له ، فحمل أبى إلينا أخباره وأفكاره ، ومن أول الأمر أسأت به الظن ، واتهمت عقله ، ثم أثبتت الأيام صدق شعورى وتفكيرى . وكان لنفرتيتى موقف آخر دهشت له الأسرة أما أنا فلم أدهش له . كانت تحب دائما أن تلفت الأنظار بتحديات مفتعلة ، وتود أن تثير من حولها عواصف المناقشات . أجل كانت ذكية ولكنها لم تكن صادقة ولا مخلصه ، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون ، ومادعاها أخيرا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل . وقد سمعتها مرة وهى تقول لأبى :

— أبلغ يا أبى ولى العهد أننى مؤمنة بإلهه .

فقال لها أبى متجهما :

— إنك حمقاء يا نفرتيتى ولا تقدرين العواقب !

و كنت بسبب تجديفها أخاف أن تحل اللعنة بنا جميعا . لقد بقي
إيماني بآلهتي حيا في قلبي لا يتزعزع . أجل أعلنت إيماني بالإله
الجديد لانتمائي للأسرة الملكية ، وبقصد أن أبذل ما أستطيعه في
موقعي الجديد دفاعا عن آلهتي المقدسة ، ولكن إيماني بآلهتي لم يهن
قط . وأتيح لى أن أرى المارق لأول مرة فى حفل العيد الثلاثينى
للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحرفة وبين
صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقبح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجد
ما قد تسمع عن الحب النبيل الذى جمع بين قلبى المارق وملكته
العظمى نفرتيتى ، فإنى أعرفها حق المعرفة ، وأعرف المثال الذى
حلمت به كفتى لأشواقها ، إنه لا يمت بصلة للفتى الهزيل القبيح العاجز
الذى خلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنهما يعيشان فى
الحقيقة ، أما هو فكان يعيش فى الجنون ، وأما هى فعاشت فى الكذب
والخدعة ، ولم تحب سوى العرش والسلطان . وفى الحفل غلبتها
طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنها امرأة محترفة ، ورمت
شباكها حول حور محب ولكنه لم يكن يكثرث لذلك النوع من النساء
المبتذلات . ولما دعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، قمت أنا
فرقصت فى احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

أنت تجىء كالشبع فينتهى الجوع
أنت تجىء كالثياب فينتهى العرى
أنت كالسما الهادئة بعد عاصفة هوجاء
تعطى السدف لمن أصابه البرد

أما نفرتيتى فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ولكنها سرقت
استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثم اختارت أغنية خليعة فغنت :
فى صحتك

اشربى حشى تملسى
ولا تضيقى ذرعى بالسرور
لقد حضرت ونصبت الفسخ
لنفتح الفسخ سويى
أنا وأنت معا بمفردنا
ما أجمل أن تكون معى هناك

ونكس أبى ذقنه وتلعثمت أُمى . وتهامست المغنيات المحترفات
« ما أجدر هذه البنت بأن تغنى معنا » . ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل
وهى تحلم بأن يطرق بابنا فى الصباح حور محب ولكن الأقدار كانت
تعد لنا مفاجأة أخرى إذ كانت تعدها لمصر والإمبراطورية . دعيت
الماكرة إلى مقابلة تيبى الملكة العظمى ورجعت زوجة لولى العهد .
وقلت لأُمى ألا يدعم فرعون شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم
ملكى ؟ . فقالت لى أُمى :

— لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوة مسيطرة ، وقد وافق
على اختيار عروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه .
وقبلتنى هامسة فى أذنى :

— كوني عاقلة يا موت نجمت ، لاشك أنك أفضل منها ولكن
لا حيلة لنا مع الحظ ، فاقنعى بأنك ستصنيرين من الأميرات ، وبأن الدنيا
ستقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك !

فقلت لها بصراحة ووضوح :
— سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص .
وهو ما حرصت عليه دائما ولم أنحرف عن خطه المستقيم . ولما
خلوت إلى نفرتيتى سألتها :
— هل راق لعينيك حقا ؟
ومع أنها أدركت من أعنى إلا أنها تساءلت متغاية :
— من تعنين يا موت نجمت ؟
— زوجك المقبل !
فقالت بحماس :
— إنه معجزة بين الرجال !
فسألتها بعناد :
— أهو كذلك كزوج ؟
فأجابت بغموض :
— لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج !
وقرأت أفكارها كما أقرأها عادة . سوف تقاسمه العرش ملكة
وكاهنة . ولن يعجزها أن تظفر بمن يشيع عواطفها المتعطشة للحب
والحياة . وقد مارست ذلك بكل طمأنينة ، معذرة أمام ضميرها
بعجزه ، لا ئذة بسياسته المعلنة في الاعتماد على الحب ورفض العقاب
والعنف ، فلم تخش من جانبه انتقاما كسائر الفاسدين من معاونيه . وقد
تؤكد لي عجزه وشذوذه من خلال اتصالاتي اليومية بحريمه . هناك
يعرفون الحقائق التي تخفى عن أقرب المقربين من رجال الدولة . هناك
تندروا بعجزه . وهنا فضحوا سر العلاقة الأئمة بينه وبين أمه ، المرأة

الوحيدة التى عبر عجزه فى حضنها ، والمرأة الوحيدة التى أنجبت له ابنة . وذاك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها . من أجل ذلك ثبت لدى أن بلادى تمضى نحو مصير أسود . وعاهدت ضميرى أن أقف مع الحق حيث يكون . ومات أمنتب الثالث ، وتبوأت نفرتيتى العرش ملكة عظمى مكان تيبى . وعشنا أياما كتيبة فى طيبة ، ثم انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان . واستقبلنا من الزمان أيام سرور ونصر ورخاء ، وأمهلنا الآلهة للمارق ، فتركته يلغى وجودها ويصادر أوقافها ، ومهدت له أسباب النجاح والسرور ، حتى ظن الجاهل أن الفوز الممين قد تقرر للإله الجديد ولرسالته الخيالية فى الحب والسلام . وقلت لأمى وليس معنا ثالث :

— أين الآلهة ؟ ، مالها لا تغضب لما حاق بها ؟
وإذا بأمى تقول :

— ذلك شاهد على صدق الإله الجديد ياموت نجمت !
فرمقتها بذهول ، وخيل إلى أن دنيا تغرب وأن دنيا أخرى تشرق
لا سبيل إلى الشك فيها . ولكن ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى ،
وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معا . وكلما
عضنا الدهر قلت لأبى :

— هاهو آمون يكشر عن أنيابه .

فيقول لى :

— لا ترددى أقوال الكهنة الحاقدين !

فأقول له :

— حدثنى يا أبى عن واجبك فى هذه الظروف ؟

فيقول باستياء :

— لست فى حاجة إلى من يذكرنى بواجبى ياموت نجمت !

ومرة سألت نفرتيتى :

— ألا تفعلين شيئاً للدفاع عن عرشك ؟

فقال لى بحماس لم يجوز على :

— نحن نفنى فى خدمة عرش الإله الواحد .

لم تكن مخلصه . ولم تعرف الإخلاص الحقيقى فى حياتها . كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة . ومن خلال محاولتى الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمر الحوار بيننا حتى تكاشفنا تماما ، ثم كان الوسيط بينى وبين كاهن آمون الأكبر . وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد . كان على أن أختار بين إخلاصى لأسرتى الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة . واخترت بعد أن دفعت ثمن اختيارى ألما وعذابا، هكذا انضمت إلى المعسكر الآخر ، معرضة عن مصلحتى الشخصية وسعادتى الأسرية . وقال لى توتو يوما :

— الكاهن الأكبر يطالبك بالسعى لضم الملكة إلينا !

فقلت له :

— لقد سعى إلى ذلك من قبل أن أكلف به ، ولكنى وجدتها لا تقل

جنونا عن المارق .

وبناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تيبى إلى أخت آتون ، ثم جاء بنفسه ليلقى على الرجال إنذاره الأخير . وشد ما عارض توتو ذلك . كان يقترح الانقضاء عليهم دون إنذار ، ووضعهم جميعا فى الأغلال ، وإشعال النار فى المدينة المارقة . وكنت أود أن أضرم حور محب قائد الحرس إلينا ، فهو

صاحب القوة الحقيقية فى المدينة، وعرف دائما بالصلافة والاستقامة .
ومن خلال الأحاديث التى دارت بينى وبينه آنست منه اتفاقا فى رأى
يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة . ولما لاحت فى الأفق نذر الحرب
الأهلية قلت له :

— علينا أن نعيد النظر فى مواقفنا .

فرمقنى بنظرة متسائلة فقلت بصراحة :

— لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادا .

فسألنى بدهاء :

— ألم تفتاحى أختك الملكة فى ذلك ؟

فقلت بصراحة أذهلته :

— أنها لا تقل جنونا عن الملك !

فسألنى باهتمام :

— ماذا تقترحين ؟

فقلت بحدة :

— كل شئ مباح لإنقاذ البلاد ..

ثم كانت النهاية التى عرفتها . نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس
لبلادنا فى الماضى . مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلا
قدسية العرش التقليدية فى ممارسة نزواته . لاشك فى أن ذنب نفر تيتى أثقل
من ذنبه لما خصت به من ذكاء ودهاء ، ولكنها لم تهتم إلا بذاتها
وطموحها ، فلما تولى عنه المجد هجرته فى الحال ، منضمة فى الظاهر إلى
أعدائه ، مرشحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد ، ولكن حيلتها لم تنطل
على أحد ، فانقبرت فى وحدة مظلمة لتنجتر العذاب والندم .

« مرى رع »

فى الحلقة الرابعة ، أسمر خمري ، نحيل ، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانا لمأساة ، يعيش فى بيت صغير ، بلا رفيق أو خادم ، ذلك الذى كان يوما الكاهن الأكبر للإله الواحد ، فى مدينة النور أخت آتون . وقد زرته فى بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال . ولما قرأ رسالة أبى سألنى باسم :

— ولم تتجشم هذا التعب ؟

فقلت ببساطة :

— لأعرف الحقيقة .

فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

— حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب الحقيقة .

ثم مضى يقول :

— لعلى الشخص الوحيد الذى حمل بالقوة من أخت آتون بعد أن رفض التخلي عن مولاه ، وقد سكت الصوت الإلهى وتهدم المعبد ولكن الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد .

ورنا إلى طويلا بعينه البنيتين ومضى يقول :

— أسعدنى حظى فى صباى بأن أكون ضمن حاشية الأمير ، فملت

مثله إلى الأمور الروحية ، ودرسنا معا ديانة آمون وديانة آتون . ومثل كثيرين فتنت به وأخذت بحديثه الساحر ، وروعت بنضجه السريع الخارق للمألوف . وقد باركنى بقوله الذى غزا به قلوب أتباعه ، فقال لى :

— إنى أحبك يا مرى رع فلا تضن علىّ بحبك .
فتغلغل حبه فى قلبى حيث لم تبلغ عاطفة من قبل ، حتى أباح لى
خلوته على شاطئ النيل فى أى وقت أشاء . وهى خلوة فى الطرف
الغربى من القصر ، تطل على النيل ، فى هيئة مظلة تقوم على أربعة أعمدة
تحديق بها أشجار النبق والنخيل ، أرضها من العشب النضير ، تنوسطها
حصيرة خضراء ووسادة . كان يستيقظ عند الفجر فيمضى إلى الخلوة
ينتظر شروق الشمس ، ويتغنى لقرصها البازغ من وراء الحقول .
وما زال صوته العذب يجيش فى صدرى ، وينتشر فى حواسى مثل
رائحة البخور المقدس وهو يترنم :

إنك تسطع جميلا فى جبل النور فى السماء
يا آتون الحسى يا من عاش أولا
إنك إذا اشرقت فى جبل النور الشرقى
ملأت كل بلد بجمالك
إنك جميل ، إنك عظيم
إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد
وأشعتك تضم البلاد
وكل شىء خلقتة
إنك بعيد ولكن أشعتك على الأرض
وكان يذوب من الوجد ، وتنشق من وجهه الصييح . الأنوار ، ثم
تتجول فى الحديقة وهو يقول :
— لا يوجد سرور خالص إلا فى العبادة .
ذلك أن حياته لم تخل من منغصات . وذات مرة تشكى لى قائلا :

— يأبى أبى إلا أن يجعل منى مقاتلا يا مرى رع !
لم يمر تدريبه العسكرى الفاشل دون أن يترك فى نفسه ألما يحز . أو
ينظر فى المرأة المؤطرة بالذهب الخالص ويقول باسمها :
— لا قوة ولا جمال !

أما موت أخيه الأكبر تحتشمس فقد حفر فى وجدانه جرحا غائرا لعله
لم يبرأ منه إلا حينما أصيب بجرح أشد بموت ابنته المحبوبة
ميكيتاتون . شد ما بكى أخاه الذى نصبه موته وجهها لوجه مع حقيقة
الموت الصلبة الغامضة . وسألنى :
— ما الموت يا مرى رع ؟

فلذت بالصمت متحاشيا الإجابات التقليدية التى يضيق بها . فعاد
يقول :

— ولا أى نفسه يعرف ، قرص الشمس وحده يشرق بعد الغروب ،
أما تحتشمس فلن يرجع إلى هذا الوجود مرة أخرى !
وهكذا أعلن حربا أبدية على الضعف والقيح والحزن . ومضى فى
طريقه المجهول مثل شعاع الشمس ، تنذر بوادره كل يوم بجديد ،
حتى لقيته ذات صباح مشرق شاحب اللون فى خلوته ، مستقر النظرة ،
ثابت الجنان ، فقال لى دون أن يرد تحيتى :
— ليست الشمس شيئا يا مرى رع .

فلم أدرك مقصده فجذبنى إلى مجلسه فوق الحصيرة وقال :
— استمع إلى الحقيقة يا مرى رع . ليلة أمس أسكرنى الشوق
بلاخمر ، وتجسد لى الظلام جليسا أنيسا كالعروس المتجلية ،
وحلقت بى نشوة آسرة فى الفضاء ، وهناك عبر ألف خيال وخيال
(م ٧ — العائش فى الحقيقة)

بزغت الحقيقة للفؤاد أقوى من أى منظر تراه العين، وترامى إلى صوت أجمل من عبير الأزهار فقال لى « املا وعاء قلبك بأنفاسى ، واطرد عنه ما ليس منى ، أنا القوة التى تتسلل منها قوى الوجود ، أنا النبع الذى تتدفق منه الحياة ، أنا الحب والسلام والسرور ، املا وعاء قلبك منى ويسره مشربا للمعذبين فى الكون » .

ومن شدة تألقه تراجع رأسى فى انبهار ، فقال لى :

— لا تخف يا مرى رع ، ولا تبتعد عن السعادة !

فغمغمت وأنا ألهث :

— ياله من نور !

فقال بعدوبة صافية :

— تعال لتعيش معى فى الحقيقة ..

فاعتدلت فى جلستى وقلت :

— إنى معك إلى الأبد .

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإله الواحد الذى لا إله غيره ، وغدا معلمى وأستاذى ، ورائد من لبوا النداء . وقلت له :

— آمنت بإلهك .

فقال بحبور :

— أحسنت ، ولتكون أول كاهن فى معبده .

وأعلن إيمانه لخاصته ولكنه لم يتعرض للآلهة إلا فيما بعد ، وبالتدرج أيضا ، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولا ، ثم ألغاهما ووزع أوقافها على الفقراء فى خطوة تالية . أما على عهد إمارته فلم يكن بوسعه فى حكم والده أن يكون صاحب قرار . وقد تزوج من نفرتيتى وهو ولى للعهد ،

فوهبه الزواج سعادة كبرى ، غير أن أسعد ما أسعده حظى به من إيمانها
الصادق بإلهه . وفي أخت آتون تبوأَت مركز الكاهن الأكبر للإله
الواحد ، ولما عزم مولاي على مصادرة المعابد قلت له :

— إنك تتحدى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتى
البحر .

فقال لى بثقة :

— ما الكهنة إلا دجالون ، يستعبدون الضعفاء ، ويسنشرون
الخرافات ، وينهبون الأرزاق ، معابدهم مواخير ، وقلوبهم ثملة بحب
الدنيا ..

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه ، وشجاعة
لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماى قائد الحدود . وقد
حسبه أناس لغزا لا يحل لكنه وضع بالنسبة لى مثل نور الشمس . لقد
فنى فى حب إلهه وأحبه الإله فكرس حياته لخدمته ملقيا بالعواقب
جانبا ، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه . ولم أدهش
لسلوكه فى رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته ، ولم أدهش
لتمسكه برسالة الحب والسلام حتى فى أخرج الظروف ، ولم أدهش
لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقربين إليه . كان يعيش فى
رحاب الإله ويصدع بأمره ، ولا يبالي بعد ذلك بما يحيق به ، إذ كيف
يمكن من ينغمس فى الحقيقة أن يكثرث لمكر الساسة ودهاء
العسكريين ؟! وقد رموه بالخيال والحلم والجنون ، فكان هو العائش
فى الحقيقة ، وكانوا هم الخياليين الحاليمين المعجنيين الغارقين فى أوهام
الدنيا الفاسدة . ولم يكن العرش يهمهم كما يهم الملوك العاديين . بل

إننى أذكر أنه عندما دعى من رحلته لتولى العرش بعد وفاة أبيه ، تجهم وجهه وتساءل :

— ترى هل تشغلنى الشواغل عن إلهى ؟

فقلت له بحماس صادق :

— بل إنك مدعو يا مولاي لوضع قوة العرش فى خدمة الإله ، كما

التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة .

فسرى عنه وتمتم :

— نطقت بالحق يا مرى رع ، فكما قدموا لآلهتهم قرايين من البشر

المساكين ، سأقدم قوى الشر قرايين لإلهى ، محطما الأغلال التى يرسف فيها من لاحول لهم .

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك ولكن فى سبيل الحقيقة والحب والسلام وسعادة البشر ، وأثبت فى غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه ، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتى أمورهم اليومية أما هو فلا يننى عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقاً بالنعمة الإلهية والنبيل البشرى . وتجلى سحره كأقوى ما يكون فى نشر دعوته بالأقاليم ، وقد فتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين . وسكت مرى رع ليتنهد طويلاً ثم واصل حديثه :

— ثم جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضاً مسوقة بأنفاس الحقد

فى داخل البلاد وخارجها . وتلقاها كل رجل بحسب قوة إيمانه ، ولم يعبأ بها مولاي وراح يردد :

— لن يخذلنى إلهى .

- . وقال لى يوما فى المعبد :
- الرجال ينصحوننى بالاعتدال وإلهى يأمرنى بالإيمان فأيهما أتبع
يا مرى رع ؟
- ولم يكن سؤاله الساخر فى حاجة إلى إجابة . ولما مضت الأزمة فى
الاشتداد جاء حور محب لمقابلتى فى المعبد وقال لى :
- أيها الكاهن الأكبر ، إنك أقرب الرجال إلى الملك .
فأجبتة وأنا أحدث ما سيقول :
- تلك نعمة الإله علىّ .
فقال بصراحة :
- الأمور تقتضى تغيير السياسة .
فقلت له بثبات :
- أستمع لصوت الحقيقة وحدها .
فقطب فيما يشبه الضجر وقال :
- أتوقع أن أسمع كلاما معقولا .
فقلت بحدة :
- لا تفاهم إلا بين المؤمنين .
ولما علمت بقرارهم فى التخلّى عن الملك بحجة الدفاع عن حياته
قلت لآى :
- من ناحيتى لأقر العودة إلى الكفر .
ورفض مولاي التراجع خطوة واحدة ولكن كانت له خطته أيضا فى
تجنب الحرب الأهلية فكان عازما على مواجهة الشعب وحده والجنود
المتمردين ، وكان كامل الثقة فى قدرته على إعادتهم إلى حظيرة

الإيمان ، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتما وأنهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له . وتخلّى عنه الجميع ، وقد ضموني إلى قافلتهم المرتدة بقوة الجند ، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمم على مواجهة الشعب . وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل ، ووجد نفسه وحيدا حبيسا في قصره ، حتى نفرتيتى ذهبت مع الذاهبين ، وعند ذاك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذى بذل حياته الغالية فى بثه وتثبيته . وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه . والحق أنى أشك فى ذلك ، وأرجح أن الأيدي الآثمة امتدت إليه فى عزلة وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة . وقد مات دون أن يعلم بأننى ماتخليت عنه إلا بالقوة ، وفى اعتقادى أن نفرتيتى أبعدت عنه بالقوة أيضا ، ولا أتصور غير ذلك أبدا .

وصمت مرة أخرى ليتنهد ثم رنا إلى طويلا وقال :
— ولكنه لم يمت ، ولا يمكن أن يموت ، إنه الحقيقة الباقية والأمل المتجدد ، وليتنصرن عاجلا أو آجلا ، ألم يعد الإله بأنه لن يخذله ؟!
ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البردى فأعطاها لى وهو يقول :

— إنها تحوى رسالته وأناشيده ، أقرأها يا فتى ، وليستجيب لها قلبك المحب للحقيقة ، فإنك لم تقم برحلتك لغير ما سبب ..

« ماى »

سعت إلى لقائه فى رنوكولبورا على الحدود حيث يقيم فى خيمة بين جنوده من جيش الحدود . كان على عهد إخناتون قائدا لجيش الحدود ، ومازال يشغل مركزه بكل جدارة فى العهد الجديد . وقد وجدته كهلا عملاقا جاد الملامح معتزا بنفسه لحد كبير . وبعد إطلاعه على خطاب والدى قال بانفعال مرحبا بالفرصة التى دعتة للتنفيس عن صدره :

— ذلك المارق ، مجهول الأب ، الذى أذل بشذوذه أعناق الرجال . لقد سكنت طبول القتال ، ونكست رايات المجد ، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكرة فى إهاب الرجال . وقد أرغمت — أنا قائد الدفاع عن الإمبراطورية — على التجمد وأوصال الولايات تتمزق وتقع فى قبضة المتمردين والأعداء ، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشى فى الهواء . أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكرى ، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق . ومن حسن حظى أننى لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبى التردد على أخت آتون بين الحين والحين . وفى كل مرة كانت تملكنى الحيرة لخدع رجال مثل آى وهور محب وناخت لغر مشوه ، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد . وكنت ومازلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها المتوارثة ، يوم بلغنى كفره غضبت غضبا شديدا ، وعقدت العزم على الانضمام إلى

المؤمنين إذا شقوا عصا طاعته . ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أن اللعنة الكبرى ستحيق بنا ، وستوجه ضربتها إلى الجميع غير مفرقة بين الخبيث والطيب . ولدى زيارة لى لطيبة ، جاءنى بليل الكاهن الأكبر لآمون ، وسألنى :

— هل تجد حرجا فى هذا اللقاء ؟

فأجبت بصراحة أدهشته :

— لى الشرف ، وقصرى رهن إشارتك .

فشكرنى وقال :

— إنك من جيل الأبرار يا مائ . انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء ، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدمون القرابين ، ويفزعون إلى كاهنهم فى الملمات فيرشدهم فى الحياة وحين الموت ، ضاع المساكين كالأغنام الضالة ..

فقلت بامتعاض شديد :

— وما جدوى التشكى ؟ ألا ترى أن الواجب يطالبنا بالتخلص

منه ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

— ولكن ذلك سيجر علينا حربا طاحنة !

— ألا يوجد حل ؟

فقال بيقين :

— إقناع رجاله المقربين !

— ياله من أمل بعيد .

فقال الرجل بحذر :

— لن نعهد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل ..
فعاهدته قائلاً :

— ستجدون جيش الدفاع وراءكم فى اللحظة المناسبة .
ولكن نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتاً طويلاً ، حلت فيه الكارثة بالبلاد ، فلم يبق إلا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض .
ولقد تساعل كثيرون عن سر المأساة . أقول لك إن سرها يكمن فى ضعف المارق ، ضعف جسده وعقله معا . لقد أفرطت أمه فى تدليله فشأ شديداً الحساسية لحد المرض ، داعياً بانحطاطه لدى المقارنة بأقرانه المميزين مثل حور محب وناخت وبك ، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوى والعذوبة المختثة ، على حين يبت الغدر لكل قوى ، إنها كان أو كاهنا ، ليخطر وحده فى الساحة ، محتكراً لصوت الإله الذى اخترعه ، ولقوته غير المحدودة . من ناحية أخرى تصدى ضعفه لكل طامع كإغراء لا يقاوم : أجل لقد هرع إليه الرجال لا خوفاً من قوته ولكن طمعا فى ضعفه . من أجل ذلك أعلن رجال الإمبراطورية إيمانهم برسائله ، فبعث إليهم برسائل الحب حين تمردهم بديلاً عن جيش الدفاع . ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقى الشك إلى عقولهم مثل أى وحور محب وناخت ، وامرأة داهية مثل نصر تيتى . كان ضعفه الطعم الذى جُذِبَ إليه المنافقون والطماعون واللصوص والفاسقون . ولبثوا يتابعون أناشيده فى المعبد ثم ينهون الأموال ويستغلون العباد ، حتى تهددهم الموت فتخلوا عنه وانضموا إلى أعدائه محملين بغنائمهم . لذلك أعلنت رأى للكاهن الأكبر عند اشتداد الأزمة . قلت له :

— لا تقم بزيارتك لأخت آتون ، لا تنذرهم ، دعنى أزحف عليهم

وأبيدهم ليستقر قلب العدالة ..
وأيدنى توتو بحماس أشد ولكن الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن
الدماء ، فقال لى :
— حسينا ماأصابنا .

وأدركت مايجول بخاطره . إنه رجل ذاهية وينظر إلى بعيد . فقدر
ولا شك أنه إن أذن لى فى القتال ففضيت على المارق ورجاله ، أحرزت
بحق الصدارة والبطولة ، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش .
وعند ذاك سيجد على العرش ملكا قويا لا يمكن أن يتجاوز حجمه
الطبيعى فى رحابه . لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاما لا حول
له ليكبر ويتضخم على حسابه . وهاهم اليوم يحومون حول العرش ،
الكاهن وآى و حور محب ، و يتربصون بصاحبه . هكذا تجرى الأمور
فى مصر التى نضب فيها معين الإخلاص .
على أى حال فنحن اليوم خير مما كنا أمس . لقد هُجر المارق مع
ضعفه فمات غما ، وهاهى الداعرة تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال
المدينة الكافرة .

وسكت ماى مضيفا على نبرته نغمة الختام ، بيد أنى سألته :

— ونفرتيتى يا سيدى القائد ١٩

فقال بلا مبالاة :

— امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حفظها أن تمارس
هوايتها فى عشق الرجال من فوق العرش ، ولا تصدق ما يحتمل أن
تسمعه عن كفاءتها كملكة ، فلو كان بعضه حقا لا كله ما سقطت
البلاد فى عهدها فى هوة الفساد والخراب ، وقد تخلت عنه فى اللحظة
التي فقد فيها نفوذه ، ولكنها خابت فى ركوب السفينة الجديدة !

« محو »

زرتة فى قرينته جنوب طيبة يعيش من الزراعة بعد أن كان رئيسا لشرطة
إخناتون فى أخت آتون . وهو فى الأربعين من عمره ، غليظ القسما
واضحها ، قوى البنيان ، تطل من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة .
ولما قرأ رسالتى شبك أصابعه فوق رأسه داعيا بحسرة ذكريات تولت ،
وأنشأ يقول :

— جفت ينابيع السرور من بعده ، سامحتك الآلهة يا مصر !
بدأت علاقتى به بطريقة لا تتكرر ولا يحلم بمثلها أمثالى . كنت
جنديا من حرس القصر الفرعونى ، وكنت ألمح فى الحديقة من بعيد .
وذات صباح رأيته مقبلا نحوى كأنما اكتشفنى لأول مرة فتحولت إلى
تمثال بين يديه . نظر إلى طويلا حتى شعرت بنظرتة تجرى مع دمي
وتتردد مع أنفاسى . وإذا به يسألنى :

— ما اسمك ؟

— محو .

— من أى مكان أنت ؟

— من قرية فينا .

— صناعة أهلك ؟

— فلاحون .

— لماذا اختارك حور محب فى الحرس ؟

— لا أدرى .

— إنه يختار الشجعان .

فانتفض قلبي سرورا ولم أنبس ، فقال بثقة :

— إنك شاب صادق يا محو .

فطرت من الفرح ولزمت الصمت ، وإذا به يسألني :

— أتقبل صداقتي ؟

فتلاشي عقلي من الدهول وتمتمت :

— ما أرفع هذا الشرف عن متناولي .

فمضى باسماء وهو يقول :

— سنلتقي كثيرا أيها الصديق .

تلك واقعة حقيقية ، فهكذا كان يختار رجاله . وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون ، وتجلى إليه جديد له ، كما عزفت على كئيب منا أناشيده . وثفتحت قلبي لكل ما يعجىء منه . جذبني إليه سحره النفاث وحيي العميق له . لعلني لم أفهم مما سمعت إلا القليل ، ولعلني تحيرت طويلا أمام إلهه الغامض الذي لا يتجسد في تمثال ، ويعامل الناس بالحب دون العقاب ، ولعلني لم أكفر بآمون ، ولكنني آمنت حبا في مولاي ، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم . عاش في الحب للحب ، لم يصدر عنه أذى لإنسان أو حيوان ، لم يلوث يده بدم ، ولم يعاقب مذنباً . ولما اعتلى العرش استدعاني وقال لي :

— لا ألزمك بشيء تكرهه يا محو ، وسيجري رزقك هنا أو هناك ،

فهل ترغب في إعلان إيمانك بالإله الواحد الذي لا إله غيره ؟

فأجبت دون تردد :

— أعلن إيماني بالإله الواحد يا مولاي ، وأعلن استعدادي للموت
في سبيله .

فقال بهدوء :

— ستكون رئيسا للشرطة ولكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك
الغالية ..

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت في
أحضان كلماتهم ورضعت حبههم وتقديسهم . ومع ذلك فلم تصدر عن
يدى ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسا لشرطته عدا ضربة واحدة
انطلقت من يدي بلا إذن منه . ويوم تسلمت الرياسة قال لي :

— ليكن سلاحك منذ اليوم زينة ، أدب الناس بالحب كما علمتك ،
ومن لم يؤديه الحب يؤديه المزيد من الحب ..

وكنا نقبض على اللصوص فنسترد ما سلبوا ، ونهيبهم لهم عملا في
المزارع ، ونلقنهم رسالة الحب والسلام . أما القتلة فيرسلون إلى
المناجم ، وتوفر لهم أسباب الراحة والرزق ، ويتلقون في أوقات الفراغ
دروسا في الدين الجديد . وكثيرا ما لقينا من ذلك ضروبا من الجحود
والغدر ، ولكن حرارته لم تفتأ أبدا ، وكان يقول :

— سترون قريبا شجرة الأمل مثقلة بالثمار .

كان إيمانه قويا راسخا متحديا لا يتزعزع ولا يهين ، ذلك الملك
العجيب الذي شبع الهواء بالسرور في مدينة النور ، وأثملت أناسه
قلوب الرجال والنساء والطيور . كان يومه يمضي على غير ما عهد الملوك
من آبائه وأجداده ، فهو يتعبد في الخلوة ، يخطب من شرفة قصره ،
ويلقي أناسه في المعبد ، ويتجول في عربته الملكية في شوارع أخت

آتون ، بصحبة الملكة ، بلا حرس ، مخالطا جموع شعبه ، محطما
الحواجز التقليدية بين العرش والناس ، داعيا في كل مكان إلى العبادة
والحب ، والجميع من الوزراء حتى عمال النظافة يترنمون بنشيد الولاء
للإله الواحد .

وذات صباح جاءني أحد معاوني وقال لي :
— ثمة همس بين الصفوة عن أنباء سوء !

باحث الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين ومعاناة الفلاحين
وتفشي العصيان في الإمبراطورية . خرجت الحشرات من جحورها
زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل . وأشفق قلبي مما عسى أن يتسلل إلى
مولاي من الكدر ، غير أن الاحداث لم تزده إلا صلابة وإيمانا وثقة في
النصر . ولم يهن تمسكه بالحب ، بل لعله قوى واشتد ، وكأن الظلام
لم يدلهم إلا ليعده بالنور القريب . وفي تلك الأيام الكالحة تسلك مجرم
من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله في غيش الظلام ، وكاد ينجح لولا أن
عاجلته بسهم في صدره . وانتبه مولاي إلى ما أريد به فجعل يتفرس في
وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه ، ووجم طويلا ثم نظر نحوي قائلا في فتور :
— قمت بواجبك يا محو .

فهتفت منفعلا :

— إنني فداء لمولاي .

فسألني بنفس النبرة الفاترة :

— أما كان في مقدورك أن تقبض عليه حيا ؟

فقلت صادقا :

— كلا. يا مولاي ..

فقال بأسى :

— دبر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة ييغضها واهب الحياة فجيل
بينهم وبينها ووقعنا نحن في الشرك .

فقلت بحرارة :

— بعض الشر لا يصلحه إلا السيف !

فقال ساخرا :

— هكذا يؤكدون ، ويكررون من قبل أن يوحد منا القطرين ، فهل
محقوا الشر ؟!

فأخذته نشوة مباغطة فهتف :

— متى يرى البشر المشرق والمغرب في دفقة نور واحدة ؟!
انحدرنا من سيئ إلى أسوأ ، وتكشف الرجال عن أشباح خاوية ،
وجرفتهم رياح الخريف أوراقا صفراء جافة لا إيمان لها ولا وفاء ،
واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرروا التخلي عنه باسم الدفاع عن
حياته . وما أدري إلا وهور محب يصدر لى أمرا بمغادرة المدينة على
رأس جنودى . ولم يكن فى مقدورى مناقشته ، وحتى توديع مولاي لم
يسمح لى به : وذهبت إلى طيبة وبنى غصنة ندم لم تفارقنى حتى اليوم .
وسرحت فيمن سرح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتي كاسف
البال إلى الأبد . وترامت إلينا نتف من أنباء مولاي السجين فى قصره ،
ثم أعلن خبر وفاته مريضا فلم يداخلنى شك فى اغتياله . كيف تلاشى
الحلم الجميل بهذه السرعة ؟! كيف تخلى عنه الإله بعد أن سكب فى
أذنيه صوته المقدس الواعد ؟، كيف وكيف أيتها الدنيا التى لا معنى
لك ؟!

وسكت وهو من الحزن فى غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثم سأله:

— ترى ماتصورك العام عنه ؟

فأجاب فى حيرة :

— إنه روح العذوبة والصفاء ولكنى لا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما

تقول الوقائع التى سردت ..

— ونفرتينى ؟

— إنها الجمال والجلال .

فقلت بعد تردد :

— ما أكثر ما يقال عنها !

فقال بوضوح :

— أقول لك كرئيس للشرطة أننى لم أسجل عنها حركة سوء

واحدة ، رغم أننى قرأت فى أعين حور محب وناخت وماى نظرات

جشعة مضمخة بأخبث الشهوات ، وعلى مدى علمى أنها لم تشجع

أحدا على تجاوز حدوده ..

— لم انفصلت عنه فى رأيك ؟

فأجاب فى حيرة :

— إنه لغز لم أستطع حله إلى الآن !

— يخیل إلى أنك كفرت بإله مولاك ؟

فأجاب بعبوس :

— لم أعد أو من بإله !

« ناخت »

سليل أسرة عريقة ، ربعة ، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة ، رزين أكثر من أى إنسان ، فى الأربعين أو نحوها ، كان وزير إخناتون ، وهو يعيش اليوم فى مقاطعته بإقليم دكما فى وسط الدلتا . لم يشغل وظيفة فى الدولة الجديدة ولكنه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه فى المشكلات الكبرى . رحب بى منوها بالعلاقات القديمة التى تربط بين أسرنا ثم مضى يدلى برأيه — متجاوزا الأحداث التى باتت معروفة لدى — وهو يقول :

— دعنى أخبرك بأنى رجل غير سعيد ، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليتى كما يجب ، فأفلت منى الملك ، وتمزقت تحت بصرى الإمبراطورية . لقد اعتزلت الحياة العامة ولكن الهوم لم تعتزل قلبى . وكلما ألح على الكدر ساءلت نفسى أى رجل كان مولاى إخناتون الذى وصف اليوم بالمارق ؟.

كنت من رفقاء صباه مثل حور محب وبك ، ورغم كل ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغبابة منظره فقد نجح فى حملنا على حبه ، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكر . ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفناها فيه قبل الآخرين وهى أن شئون الدنيا الواقعية لم تكن تهمة ، وكانت تبعث فى نفسه الملالة والسقم . كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليومية التى تكون النواة الصلبة التى تركز عليها تقاليد العرش المقدسة مثل الاستيقاظ فى ساعة محددة ، والاستحمام والإفطار (م ٨ — العائش فى الحقيقة)

والصلاة واستقبال المسؤولين وزيارة المعبد ، وكان يغمغم :

— أى عبودية !

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذته فى التحدى وتحطيم الآنية الثمينة ، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سر الكون ، والسيطرة على الحياة والموت . وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس . لقد انكسر قلبه أمام الموت ولكنه صمم على أن يرد الضربة بلا هوادة . وكان ذا خيال وثاب ، وكان خياله من القوة بحيث وقع فى النهاية أسيرا له وهو لا يدرى . ونحن أيضا كان لنا خيال ، ولكننا كنا على وعى بأنه خيال . أما هو فكان خياله يتجسد له حقيقة واقعة . من أجل ذلك ظن به الجنون أو العته . كلا ، لم يكن مجنونا ولا معتوها ولكنه لم يكن طبيعيا أيضا . كان على حدائته مبعث قلق لوالديه وللكهنة ، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين . يشك فى آمون سيد الآلهة ، ويعبد آتون ثم يسر إلينا بأهتدائه إلى الإله الواحد الذى لا إله غيره . لم أشك فى صدقه ، كما لم أشك فى خطئه . كان صادقا لأنه لم يكذب قط ، ولكنه لم يسمع صوت إله ، وكان المتكلم قلبه هو . وما من بأس فى أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة ، أما أن يكون الزاعم وليا لعهد أمنتب الثالث فالأمر يختلف . ولم يصمت ذلك الصوت الخفى ، ولكنه راح يبدع للناس رسالة فى الحب والسلام والسرور ، ويضممر للآلهة والمعابد وإمبراطوريتنا الفناء . وإذا بالشاعر يصير ملكا ، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحل محلها فتختل الموازين وتقع المأساة . ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد !. كان من رأيى الرفض ، وقلت لحوور محب

— قد يعدل عن غيه إذا وجد نفسه وحيدا .

فقال لى :

— سيجد غيرنا ممن لا خلاق لهم ولا خبرة فيجرون البلاد إلى

الخراب .

فسأله :

— أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا ؟

فابتسم ساخرا وقال :

— إنه أضعف من أن يستهين برأينا !

وهز منكبيه وتمتم :

— إنه يملك الكلمات ونحن نملك القوة ..

من أجل ذلك أعلنت إيماني بدينه بين يديه . واختارنى وزيرا
فتلاشت مخاوفى أو كادت . وكنت ألقاه كل يوم سواء فى طيبة أو فى
أخت آتون ، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت
تاركا الرأى والتوجيه للملكة التى أثبتت جدارة فاقت كل تصور ، أما هو
فلم يتحدث إلا عن إلهه ورسالته ، وما يتعلق بذلك من توجيهات
وقرارات . وواجهت أول تحد عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة ،
وحذرتة من العواقب وإذا به يقول لى كالمعاتب :

— يا ضعيف الإيمان !

ومضى بى إلى الشرفة فأطل على الجموع المحتشدة ، وكانت له
قوة السحر فى نفوسهم ، فأعلن قراره بقوة مخيفة وارتفع هتاف
الجماهير إلى السماء ، وشعرت بأننى أصبحت لا شىء ، وأن ذاك البناء
المتهافت يتفجر عن قوة مجهولة لا قبل لنا بها . ورغم حكمة نفرتيتى

كانت تسلم له فى رسالته وتتحمس لها كأنها هى صاحبة الرسالة .
والحق أن ذلك أدهشنى حتى قلت لنفسى :

— هذه المرأة إما أن تكون شريكته الروحية أو تكون أكبر ماكرة عرفتھا
البشرية ! وفى تقديرى أنه مما أكد له النجاح أنه لم يتصد لمعارضته
سواى . فمحور محب لم يتكلم إلا عندما بلغت الأزمة ذروتها ، وأما آى
المستشار فقد شجعه طيلة الوقت متظاهرا بالحماس والورع والتفانى فى
حب الإله الجديد . ودعنى أصارحك بأننى أتهم ذلك الرجل بالمكر
وسوء الطوية ، إنه رسم خطة ليثب إلى عرش مصر ، وإليك تصوورى
كاملا . لقد اختير معلما لولى العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعا . هو
الذى وجهه إلى ديانة آتون ، وهو الذى بث فى روحه فكرة الإله الواحد
وأنه صاحب رسالته . وهو الذى دبر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه ،
وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد . بذلك صار حما الملك ومستشاره
المعروف فى مصر بالحكيم . وزين له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين
الكهنة والشعب فينتهى الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه
الطبيعى . ولم تكن تخفى عنه الأسباب التى ترشحه للعرش ، فهو حمو
الملك وهو الحكيم ، وهو أيضا طاعن فى السن لا يئأس الطامعون فى
العرش من انتظار أجله ليحلوا محله . ولعله رسم أيضا أن يتزوج من ابنته
نفرتيتى فيدعم شرعيته وتستمر هى ملكة لمصر . ورأى هذا لا يستند
إلى تصوورى وحده ولكن لما وافانى به بعض العيون ، ولكن أفضل خطته
ولاء الشعب للملك أولا ، ثم تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة
الأزمة ، ولكنى أعتقد أنه ما زال يجتر حلمه القديم .

ولم أستطع أن أبوح برأى لأحد ، ولكننى ثابت على تقديم نصيحى
للملك ، قلت له :

— لا شك أن إلهك هو الإله الحق ، ولكن دع الناس إلى آلهتهم ،
شيد له فى كل إقليم معبدا وسيكون له النصر الأخير ، ولكن جنب البلاد
شر الفتن !

ولكن كان أسهل على أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح
إخناتون عن قراره ، ومازاد عن أن قال لى :

— يا ضعيف الإيمان !

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد ، والإمبراطورية من
الضياع ، قلت له :

— الدفاع عن النفس حق ولا يتناقض مع الحب والسلام .

فقال لى بحماسة العجيب :

— حتى الحيثيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب ، الحب أقوى
من السيف والكبرياء !

ولما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرا بكاهن آمون وقائد
الدفاع ماى ، وقلت لهما :

— لا بد من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف .

فنظرا إلى مستطلعين فقلت :

— فليكف الكهنة عن إثارة القلاقل فى الداخل ، وليزحف ماى
بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية .

فتسائل ماى :

— أزحف بلاأمر من فرعون ؟

فقلت بهدوء :

— بلى ..

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا :

— وبعد ؟

فقلت :

حينما يتم النصر لماي يطالب الملك بإطلاق حرية الأديان .

وإذا بالكاهن يقول لى :

— خطة غير حكيمة فقد يتمرد قواد الجيش على ماى إذا أمرهم

بالزحف دون أمر فرعونى ..

ثم قطب حتى احتنق الدم بوجهه وقال لى :

— إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لحسابنا ، فلا شك أنه بلغك

نجاحنا فى بث دعوتنا فى الأقاليم فقررت أن تحررنا من جنودنا الموالين

لنا ..

تلقيت الطعنة فى غضب وغادرتهما موقنا بأن أحدا لا يشغل باله

إلا بمصلحته الذاتية ، وأن مصر ضائعة بين أوغاد ، وأن تبعة خرابها تقع

على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على أختاتون

وحده ، بل لعله أنقى المذنبين ضميرا وأصفاهم نية . لقد لعب به

الدهاء ، ورسموا له خطة مأكرة ليحققوا فى رحابه جشعهم ، ثم ليرثوا

ملكه عقب السقوط الحتمى ، ولكنه صدق كذبتهم وأمن بها ،

وتفجرت من إيمانه قوة لم يعمل أحد حسابها ، فاجتاحتهم فترة من

الزمن ، وغزت القلوب بسحر عجيب ، حتى ارتطمت بصخرة الواقع

الحادة القاسية ، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع ، ثم لاذ

الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة فى آخر لحظة ، تاركين ضحيتهم
الأعجوبة يفرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلى عنه
حقا . ومزق الجميع أقنعتهم ، وعلى رأسهم آى ونفرتيتى ، واختلفت
مصائرهم ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق ، باستثناء المارق
المسكين ، ولدرجة ما نفرتيتى التى لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة ، أما
مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت فى جسدها الجراح ..

وصمت الوزير طويلا ثم تمتم فى أسى عميق :

— هذه هى قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدى ..

« بنتو »

كان طبيب إخناتون الخاص ، وما زال يشغل نفس الوظيفة فى قصر توت عنخ آمون ، فى الستين من عمره ، نبيل المظهر ، وينبض به عرق نوبى ، وقد زرته فى قصره الأنيق فى وسط طيبة . وجدته هادئة الطبع ، خافت الصوت ، جم النشاط متأنقا فى ملبسه . مضى يتكلم فى استسلام لتيار الذكريات ، قائلا :

— مهما قيل عن إخناتون الذى يعرف اليوم بالمارق فإن ذكره تدفىء القلب بالحب ، وتحدى الذاكرة بعجائبها ، هل حقا عاش ذلك الرجل بيننا ؟.. هل حقا كرس حياته للحب ؟. وهل حقا خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية ؟. وكلما تذكرته تذكرت معه القلق الذى أثاره فى قلوب القرييين منه والبعيدى منذ صباه المبكر . كانت الملكة العظمى تبنى تسألنى :

— ما سر ضعفه يا بنتو ؟

شد ما حيرنى ذلك السؤال . لم يكن به مرض ، ولكنه كان نحىلا هزىلا شاحب اللون ، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث ، بخلاف شقيقه تحتمس القوى الجميل ، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد . وكنت أصلى إلى تحوت إله العلم وأقول له « تعال إلّى أرشدنى فإنى خادم فى دارك » . ولم ينفع معه عصير الأعشاب باركة برقية إيزيس ولا تمائم تحوت كاتب رسائل الآلهة . وبلغ لخوف غايته عندما مسه المرض فى الخماسين ، وجبر معه أخاه

تحتمس فرقدا فى حجرة واحدة . وقالت لى الملكة تيبى :

— بهما إمساك ، وانظر إلى صفرة وجهيهما ..

ففحصتهما وقلت :

— بالقلب حرارة وفى البطن انتفاخ ، لا بد من شراب يفرغ
الأمعاء ، ثم انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ليأكلا منه
أربعة أيام .

قبل أن تنتهى الأيام مات تحتمس القوى ، ونجا الضعيف من كل
سوء . ودار الصبى فى جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطع
من الحزن . وكلما رآنى رمانى بنظرة احتجاج ويقول :

— تركت أخى للموت !

ونظر إلى أبيه وقال معاتبا :

— عندما أصير فرعون سأقتل الموت !

وسألنى يوما بحرارة :

— ألا يمكن أن يرجع تحتمس يوما واحدا ؟!

فقلت له :

— صل للآلهة التى أنقذت روحك ، أما الموت فلا رجعة منه .

وكلنا سنموت .. فسألنى بحدة :

— لماذا ؟

فقلت له ملاطفا :

— ردد الأغنية التى كنت تترنم بها مع أخيك الراحل :

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم

أين ديارهم الآن ؟

كأنها لم تكن

افرح حتى تنسى قلبك

فإن أوزوريس لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنسانا من عالم الأموات .

وصاحبه الحزن زمنا طويلا حتى خيل إلى أنه فاق أمه فى حزنه على

أخيه . ومرة وأنا أتعهده بالرعاية الطبية سألتنى :

— لم هذا الجهد كله طالما أننا كلنا سنموت ؟

فابتسمت وواصلت عملى فرجع يسأل :

— لم تبتسم كأنك لن تموت ؟

فقلت له متهربا من مطاردته :

— سل معلمك أى .

فقال باستهانة :

— إنه لا يعرف أكثر مما تعرف .

وكان نضيج حديثه مع هزاله وحداثته مما يهز النفس من أعماقها .

وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذى لا حد

له ، وقلت لنفسى إن هذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصى على

الإدراك ، مثير للقلاقل ، متحدية للقوى المتربصة به ، فماذا يخبئ له

الغيب إذا جلس يوما على عرش أجداده ؟ . وكان نشاطه — مع ضعفه —

مما يبعث على الدهول . كان ينام قليلا ، يتعبد كثيرا كأنه كاهن ،

ويقرأ كثيرا كأنه حكيم ، ولا يمل من طرح الأسئلة والنقاش . وضاق به

الملك أبوه فقال بمرارة :

— أثبت أنه جدير بأى كرسي إلا كرسي العرش !

ويوما لاحظت أنه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها ، فقلت له :

— إنك تدرك كثيرا من الأشياء ولكنك لم تدرك عظمة أليك بعد .

فقال بعصبية :

— ساءنى منظره وهو يلتهم الطعام .

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة . وكنت أتصور أن سلامة الجسم هى أساس لسلامة الروح ، فأثبت لى أن العكس صحيح أيضا ، وأن قوة الروح قد تمد الجسم الضعيف بقوة تفوق إمكاناته . ولا أنسى قوله لى مداعبا :

— إنك تهتم بالجسم كأنه كل شىء بينا القوة الحقيقية تكمن فى

الروح ، هى الخالدة أما الجسم فهو بناء مهلهل قدر سىء الأخلاق

سرعان ما يتقوض عقب قرصة حشرة !

وهتف وكأنه نسى وجودى تماما :

— لا أدرى ماذا أريد ولكنى ملئ بالربة ، ألا ما أحزن الليل

الطويل .

وكان يقبع فى الظلمة منتظرا الشروق ثم يتلقى النور فيتألق بالفرح ،

حتى تلقى يوما مع دفقة النور صوت الإله الواحد ، وعصف الرعب

بقلب طيبة المطمئن . وقلت لنفسى :

— إنه ليس نسمة من نسائم الربيع ولكنه عاصفة من عواصف

الشتاء !

واستدعانى الملك والملكة ، وسألتنى تبي :

— ما معنى هذا الصوت يا بنتو ؟

فقلت بحبرة :

— لعل آى الحكيم أقدر على الإجابة منى يامولاتى .

فقال الملك بضجر :

— إنها تسألك كطبيب .

فقلت بإخلاص :

— لا أعرف عقلا أنضج من عقله يامولاي .

فسألنى بحدة :

— أهو يعبث بنا ؟

فقلت بإخلاص :

— إنه صادق وأمين .

— يبدو أنك لا تملك تفسيراً لذلك .

— هذا حق يامولاي .

فسألنى مقطبا :

— أأنت مؤمن بسلامة عقله ؟

— أجل يامولاي .

— ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوة شريرة ؟

فقلت بصدق :

— العبرة بما يدعوا إليه .

فهتف غاضبا :

— العبرة بما سيرسل علينا من زوابع .

وجاء زواجه من نفرتيتى مبشرا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا
نحن أن الزواج سيعقل من اندفاعه ويرده إلى الاتزان والرؤية العملية .
ولكن الزوجة كانت كاهنة فانطلقا فى طريقهما حتى نهايته لا توقفهما
قوة فوق الأرض . ومات أمنتخب الثالث وخلفه صاحب الرسالة ،
وشعر الجميع بدنو المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حد . ودعانى
الملك فيمن دعا من رجاله وخيرنى بين الإيمان بدينه وبين ممارستى
لحياتى كيفما أشاء بعيدا عن بلاطه ، ولم أتردد فى الاختيار فأعلنت بين
يديه إيمانى بالإله الواحد . لم يكن فى وسعى الانفصال عنه أو الاستهانة
بجاذبيته الفائقة ، كما أننى أحبيت إلهه واعتبرته فيما بينى وبين نفسى
كبير الآلهة مع حفاظى على إيمانى القديم بسائر الآلهة ، خاصة تحوت
إله العلم الذى أداوى المرض بتمائمه وتعاويذه . وتعاقت الأحداث
كما عرفت ، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته ، وانتقلنا
إليها فى جمع زاهر ونحن نردد الأناشيد ، واستخف الفرح الملك
فهتف ووجهه يطفح بالبشر :

— ها نحن ضيوفك يا إلهى فى مدينتك الطاهرة التى لم تلوث بعبادة
إله زائف ..

واستقبلنا عهدا سعيدا تمنينا معه الخلود على الأرض ، وجعلت أقارن
كل صباح بين ما يلقى علينا فى المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة
وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرنى شك فى أن دفقات من نور صافى
تملأ أرواحنا بخمر إلهية صافية .

وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون .
وقد توسل إلى قائلنا :

— نتو ، أنقذ محبوبة قلبي .
ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهش فى البكاء كما نفرتيتى وأكثر ،
وعاتب إلهه عتابا تجاوز حد الصبر ، حتى قال له مرى رع الكاهن
الأكبر :

— لا تغضب الإله بدموعك يا مولاي .
فانفجر مولولا ، من الحزن أو الندم أو كليهما معا . وهتفت
نفرتيتى :

— ماهو إلا سحر كهنة آمون !
وكانت تردد ذلك القول كلما أنجبت بتنا وضاعت فرصة جديدة
لإنجاب ولى العهد . وكان هو يشاركها الألم ، ويعزن لحزنها ،
فسألنى مرة :

— أليس لديك من نصيحة تجدى لإنجاب ذكر ؟
فقلت له :

— أبذل جهدى يا مولاي .
فسألنى :

— أتؤمن بسحر الكهنة ؟
فقلت كارها :

— لا يجوز الاستهانة به .

فتفكر مليا ثم قال لى واجما :

— ليتصرن الإله الواحد ، ويملأن الكون بأفراحه ، ولكننا نحن
البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة .

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس في نور الحقيقة .
ولما تابعت كربات الأزمات في الداخل والخارج ، أرسل إليّ كاهن
آمون الأكبر رسولا سريا ، ذكرني بعهد طلبى العلم فى معبد آمون ، ثم
طرح عليّ هذا السؤال :

— أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذى يتهدده ؟
فأدركت من توى أنه يطالبني كطبيب باغتيال الملك ، ولذلك قلت
له بنبرة حاسمة :

— مهنتى تأبى الخيانة .

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدا من مراقبة الطهارة ،
هذا والأمور تمضى من سىء إلى اسوأ .

وسكت الطبيب بنتو وقتا ينشد شيئا من الراحة فى خضم الذكريات
المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون
الجنسية ، ورححت ألا يعرض الرجل لها ، فسألته عنها مدفوعا بحب
استطلاع لا يقاوم . وعند ذاك قال :

— كان جسمه يجمع بين خواص الذكر والأنثى ، كذلك قسمات
وجهه ، ولكنه كان رجلا قادرا على الحب والإنجاب .

ارتعشت شفتاى بسؤال مضطرم ، وترددت طويلا ، ثم استجمعت
شجاعتي وسألته :

— هل ترمى إليك ما قيل عن علاقته بأمه ؟

فتجههم وجه وأجاب :

— وسمعت مثلما سمعت أنت ، ولكنى أعتقد أنه محض افتراء !
وتريث ووجهه يزداد تجهما ثم قال :

— المسألة أنه كان إنسانا فاق سموه أى إنسان ، يبشر بمملكة إلهية
لا تتوافق مع طبيعة البشر ، فأشعر كل فرد بتفاهته ، وتحداه باستفزاز
لا قبل له به ، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيوانى ..

فسألته متشجعا بسماحته :

— وما رأيك فى نفرتيتى ؟

— ملكة عظمتى بكل جدارة .

— وكيف تفسر انفصالها عنه ؟

— لدى تفسير واحد ، هى أنها لم تصمد للضربات المنهالة
فأصيبت بانهيار ، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها .

ثم واصل حديثه قائلا :

— وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلّى عنه ، وقد
استأذنت حور محب فى السماح لى بالبقاء إلى جانبه بوصفى طبيبه
الخاص فأخبرنى بأن الكهنة قرروا إرسال طبيب من لدنهم . ولكنه
سمح لى بفحصه إذا شئت قبل الرحيل . وذهبت من فورى إلى القصر
الذى لم يبق به إلا نفر من العبيد ، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه .
وجدته فى خلوته وحيدا وكان يصلى ، مغردا بصوته الحنون :

إنك جميل .. إنك عظيم

بك يفرح قلب الإنسان

وتخضر الأشجار والأعشاب

وترفرف الطيور

وتقفز الحمـلان

خلقت ملايين الأشبال .

إنك فى قلبى
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك إخناتون.

ولما فرغ من صلاته نظر نحوى باسماء فغضضت بصرى دامع
العينين . سألتى :

— كيف تيسر لك أن تجىء يا بنتو ؟

فقلت بصوت متهدج :

— سمح لى بأن أفحص مولائى قبل الرحيل .

فقال فى هدوء :

— إنى فى خير حال يا بنتو .

فقلت بأسى :

— جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب .

فقال باسماء :

— أعرف من ذهب باختياره ومن ذهب على رغبة .

فانحنيت حتى لثمت يده وأنا أقول :

— يعز عليّ أن تبقى وحدك .

فقال بهدوء :

— لست وحدى يا ضعيف الإيمان .

ثم بقوة منعشة :

— يتصورون أن الهزيمة حلت بي وبإلهي ، ولكن إلهي لا يخون ولا يقبل الهزيمة .

وغادرته متورم العينين من البكاء وأنا على يقين من أن الطبيب المنتدب ليحل محلي سيزهق باغتياله أنبل روح حلت بجسد بشرى .
وغصت في وحدة لم أخرج من وحشتها حتى الساعة ..

« نفر تيتى »

سمح لى بدخول أخت آتون بإذن خاص من القائد حور محب .
مراكز الحراسة المتقاربة تمتد بطول شاطئها على النيل . اخترقت
نصف المدينة الشمالى ما بين المرسى وحتى قصر الملكة السجينة ،
يتقدمنى جندى من جنود الحراسة . وطيلة مسيرتى تلقيت من
الذكريات تيارا مفعما بالزبد والآلى ، متلاطما بين العبر والدهشة ،
تحلق فوقه غربان الفناء . اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام
الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافة . وخليط من الأخشاب التى نزعته
العواصف من النوافذ والأبواب . البوابات الكبيرة مغلقة كالجفون
المسدلة على أعين باكية ، وجفت الحقائق فتلاشت خضرتها
والوانها ، ولم يبق منها إلا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنطة
وجواسق متداعية وأسوار منهارة ، يخيم فوقها صمت ثقيل مكتوم
الزفرات ، وفى الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هى ما تخلف عن
معبد الإله الواحد المتهمم الذى تجاوزت فى أركانه أعذب الألحان
المقدسة . اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطل من أعينها نظرات
الحقد والانتقام ، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبدية .
كان الوقت عصرا ونحن نقبل على قصر الملكة فى أقصى الشمال ، وقد
تبدى شامخا بأبعاده ، مضيئا بحديقته الغناء ، حزيننا بنوافذه المغلقة عدا
نافذة واحدة خفق لمرآها قلبى . وكان الخريف يتوسط عمره ،
والفيضان محتفظا بفيض من فتوته ، والماء ضاربا إلى الاحمرار .

الداكن ، فامتلأت منه بحيرة القصر الصناعية . خفق قلبي وأنا أقترّب من ختام رحلتى ، وكأننى لم أقم بمغامرتى المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيدة الوحيدة .

ووجدتنى فى حجرة صغيرة أنيقة ، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدسة ، فى صدرها كرسى من الآبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب ، وبين يديه يقع كرسى من الآبنوس ذو مقبضين من الذهب المخلص . وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيدة العجيبة مقبلة فى ثوب أبيض فضفاض ، رشيقة جميلة عظيمة ، لا ينحنى ظهرها تحت وطأة أربعين عاما مثقلة بالمحن وسوء المآل . جلست وأشارت إلىّ بالجلوس وطالعتنى بعينين ساجيتين تنداح فى جمالهما الملالة . بدأت بالثناء على أبى ثم سألتنى بمرارة :

— كيف وجدت مدينة النور ؟

فغضضت بصرى المفتون بجمالها ولذت بالصمت ، فانشأت تقول :

— لقد سمعت الكثير عنه وعنى فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة . شبيت وترعرعت مليئة بحب الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبى آى . لم أشعر بفقد أُمى فى عامى الأول لما وجدته عندتى من حنان قلب كبير فكانت لى أما لازوجة أب ، ووهبتنى طفولة سعيدة . ولم تبدل عواطفها بمولد أختى موت نجمت بفضل حكمتها ، ونشأنا أختين متحابتين ، وإن جنى على تفوقى بعد ذلك ما يجنى من إثارة للغيرة والحسد ، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد . وظلت تى على حنانها لا تفرق بيننا ، على الأقل فى الظاهر ، فشكرت لها ذلك ،

وكافأتها عليه فى حينه فاخترتها مربية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات ،
وذاآ يوم جاءنا أبى برجل مبارك ممن يقرءون الغيب ، فنظر فى طالع
الأختين ، وقال :

— هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر .

فدهش أبى وسأله :

— الاثنان ؟

فأجابه بيقين على مسمع منا :

— الاثنان .

وتحبرنا طويلا بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته ، حتى قلت
ضاحكة :

— قد آجلس إحدانا ثم تخلفها الأآرى .

ولم ترتح آى إلى ما يشير إليه قولى من معنى فقالت بحزم :

— لننس هذه النبوءة وندع المصير للآلهة !

وصممنا على نسيانها ولكنها كانت تلوح فى أفق الخيال بين الحين
والحين ، حتى جاءت الحوادث ففآجرتها تفآجيرا . وسمعت عن
إخناآون أول ما سمعت عن طريق أبى بعد أن اختير معلما له . كان ينوه
فى مجالسنا العائلية بعقله ونضجه المبكر ؛ ومرة قال عنه :

— ياله من شخص منير ، إنه ينتقد الآلهة والكهنة ، ولم يعد يؤمن

إلا بآآون ! وبخلاف أمى وأختى وجدت صدى لما يقول فى نفسى ، إذ

كنت أعشق آآون أيضا ، وأعجب بمجاله الشامل للسماء والأرض

على حين تقبع الآلهة فى ظلام المعابد . لذلك قلت ببراعة :

— معه الحق كل الحق يا أبى .

فأسخط قولى أُمى وأختى أما أبى فقال باسمنا :

— نحن نعدك لتكونى زوجة لأكاهنة .

لكننى خلقت لأكون كاهنة مع حبيبى للأمم والمجد الدنيوى ! .
ولما نقل إلينا أبى أول نبأ عن الإله الجديد ، الواحد الذى لا إله غيره ،
زلزلنا بعنف ، وثارت العواطف لأقصى حد ، وتعرض ولى العهد
لقارص الكلمات . وسألته أُمى :

— ما رأى الملك والملكة ؟

فقال آى واجما :

— ثمة أزمة فى القصر لم يشهد لها مثيلا من قبل .

وقالت أُمى بإشفاق :

— أخشى أن يوجه إليك لوم بوصفك معلمه .

فقال بأسى :

— لكنهما أدرى بآبتهما ، وبأنه لا ينساق وراء أحد مهما جل شأنه .

فقالت موت نجمت :

— إنه مجنون ، وسيفقد عرشه ، أليس للعرش وريث آخر ؟

فقال أبى :

— ليس له سوى أخت كبرى علية ..

وفى أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتى خفت أن يغمرى
على . تمثل لى ولى العهد أسطورة ذات جاذبية لا تقاوم . لكننى ترددت
عن اتخاذ قرار ووقعت فى العذاب . وذات مساء سمعت خفية أبى وهو
تلو وحده نشيدا من أناشيد الأمير :

إنك جميل إنك عظيم
بك يفسر قلب الإنسان
وتخضر الأشجار والأعشاب
وترفرف الطيور
وتقفز الحمـلان

فحفظته وأنا فى نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبي يفتح له ويمتلئ
برحيقه . انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور . وتقرر مصيرى بأن
أكون الفراشة التى تنجذب إلى النور حتى يهلكها . وغزاني الإيمان
بقوة ولطف فى موكب مغرد بالأهازيج ، واهبا الطمأنينة والسلام .
وهمست :

— باللهى الواحد ، إني مؤمنة بك ، إلى الأبد .
وأظهرت نفسى لأبى وأخذت أردد النشيد فرمقنى مقطبا وهو
يتساءل :

— تسترقين السمع ؟

فتجاوزت عتابه وسألته :

— مارأيك يا أبى فى الصوت الذى سمعه ؟

فأجاب ببرود :

— لا أدرى .

فسألته بجراءة :

— أيجتمل أن يكون كاذبا ؟

فصمت مليا ثم قال :

— إنه لا يكذب أبدا .

— إذن فهو صوت حقيقى !
فبدا مترددا ومشققا ولكنه قال :
— ربما كان حلما ما سمع !
فقلت بنبرة تسليم واعتراف :
— أبى ، إنى مؤمنة بالإله الواحد !
فتغير لونه وهتف :

— حذار يا نفرتيتى ، احتفظى بسرك فى قلبك حتى أقتلعه منه !
ودعينا كما تعلم للمشاركة فى حفل عيد الجلوس . وقالت لى :
— يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما فى أجمل زينة .
غير أننى كنت متلهفة على رؤية شخص واحد ، ذلك الذى هدانى
إلى نور الحقيقة . وفى البهو العظيم رأيت أفرادا قدر لى أن أخوض معهم
بحر الحياة بحلوه ومره مثل حور محب وناخت وبك وماى وغيرهم ،
ولكن قلبى لم ير فى الواقع إلا مولاي . وأعترف لك بأن منظره صدمنى
صدمة غير متوقعة . تصورته تمثالا من نور ، ولكنى وجدته نحىلا
متهافتا مخيبا للأحلام . وأفقت من هزيمتى العابرة بسرعة ، تجاوزت
المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه ، التى اختصها الإله بحبه
ورسالته ، وأعلنت لها فيما بينى وبين نفسى الولاء إلى الأبد . كان
يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة . ولم تتحول عنه
عيناي ، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم ، ثم
أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية . ولن أنسى ماقالته لى موت
نجمت فيما بعد وهى تعانى لدغة الغيرة :
— لقد حددت لك هدفا ونلتته !

وتمنيت أن ينظر نحوى . وقد فعل . ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأول مرة . وهم بأن يمضى بنظرته الملوثة ولكنه توقف فيما يشبه الدهشة . وكأنه بهر ، أو تساءل عن تلك الفتاة التى تحدد فيه بنهم . وحانت منى التفاته إلى الملكة العظمى تى فوجدتها تنظر نحوى كذلك فاضطرب فؤادى أیما اضطراب . وحلقت أحلامى فى آفاق بعيدة ولكنها لم تقترب فى هيمانها من الواقع الذى جاءت به الأحداث . ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة ، وموت نجمت غارقة فى كآبتها . ولما خلت إلى فى غرفتى قالت بانفعال :

— تؤكد ظنى !

فسألتها عما تعنى فقالت :

— إنه مريض ومجنون !

فعرفت بالبداهة من تعنى فقلت :

— لقد رأيت مظهره ولكنك لم تخبرى قلبه .

وقال لنا أبى فى اليوم التالى :

— الملكة تى دعت نفرتيتى لمقابلتها .

وهز الخبر الأسرة هزة عنيفة ، وتبادلنا نظرات متسائلة . أما أبى

فقال :

— لاشك أن وراء ذلك شيئا من الرضا أو الإعجاب ..

وقالت تى بمباهاة :

— أتنبأ بأنها ستضمك إلى حاشيتها الخاصة .

وذهبت برفقة أبى . وقادونى إلى استراحة الملكة المطللة على

الحديقة الداخلية . سجدت بين يديها ، ثم أذنت لى بالجلوس على

(العائش فى الحقيقة)

أربكة إلى مبعين مجلسها . وجعلت تتفحصنى غير عابئة بحساسيتى ،
ثم سألتنى :

— اسمك نفرتيتى ؟

فأجبت بإحشاءة من رأسى فقالت بلطف :

— اسم على مسمى !

فشعرت بالفرح يشتعل فى وجننى .

— ما عمرك ؟

— ستة عشر عاما .

— تبدين أنضج من ذلك !

تم فيما يشبه الدعابة :

— لماذا دعوتك فى ظنك ؟

فألهمت أن أجيب :

— لخير هو فوق ما أستحق .

فابتسمت قائلة :

— إحابة حسنة ، ماذا حصلت من العلم ؟

— القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى

الثقافة المنزلية .

— ومارأيك فى مصر ؟

— سيدت الدنيا وملكها ملك الملوك .

وباهتمام سألت :

بـ من إلهمك المفضل ؟

فقلت مضطرة إلى إخفاء الحقيقة :

— آتون يا مولاتى .

— وآمون ؟

— هو مشيد الإمبراطورية أما آتون فهو الذى يطوف بها كل يوم !

— لا سلطان على ما ينبض به القلب ولكن يجب الإقرار بأن آمون هو

كبير الآلهة .

فقلت بنسليم :

— هو كذلك يا مولاتى .

— بصراحة هل ذاق قلبك الحب ؟

فقلت دون تردد :

— كلا يا مولاتى .

— ألم يتقدم أحد لخطبتك ؟

— كثيرون ولكن أبى لم يجد فى أيهم الكفاءة .

وتفرست فى وجهى مليا ثم سألتنى :

— ما شعورك بصراحة عما يقال عن انحراف ولى العهد عن آمون ؟

ولأول مرة تجمد لسانى فلم أنيس فقالت بنبرة ملكة :

— أجيبنى بصراحة !

فأسعمنى دهائى فقلت :

— مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعية بين

العرش والكهنة .

فابتسمت فى ارتياح وقالت :

— إجابة حسنة .

ثم اعتدلت فيما يتببه الدلال وسألت :

- حدثيني عن فتى أحلامك ، كيف تودين أن يكون ؟
فتريث في ارتباك ثم تمتمت :
— أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن .
فقلت ضاحكة :
— إنك طموحة جدا ، من تفضلين إذا خيرت ؟
— أفضل صاحب الروح .
— حقا ؟
— أجل يا مولاتي .
— لست كغيرك من السات .
— لا دنيا عندي بلا دين .
— وهل دين بلا دنيا ؟
فتراجعت قائلة :
— ولا دين بلا دنيا .
وصمت طويلا وأنا أكتُم انفعالاتي المتصاعدة ، ثم سألتني :
— أرايت ولى العهد ؟
— فى حفل عيد الجلوس يا مولاتي .
فسألت بصوت غريب :
— وكيف ترينه ؟
— إنه يتفرد بقوة خفية تميزه عن سائر الشباب ..
ففأحأتنى متسائلة :
— أعنى كزوج ؟

وخرست من هول المفاجأة حتى كررت السؤال فقلت بصوت متهدج :

- لا تسعفنى الكلمات يا مولاتى .
- ألم يساورك حلم يوما بأن تصيرى ملكة ؟
- أحلامى جزء من قلبى المتواضع .
- ألا يفتنك العرش ؟
- إنه فى سماء لا ترتفع إليها أحلامى .
- فصمت قليلا ثم قالت :
- اخترتك زوجة لابنى ولى العهد .
- فأغمضت عيني من شدة التأثر ، ثم قلت عندما استرددت قدرتى :
- ولكنه لا يعرفى ولا بهتم بى .
- فقلت باعتزاز :
- ولكنه برضخ لمشيئتى عن حب راسخ ..
- ثم مواصلة الحديث بجلال :
- يهمنى فى المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة ، ولما رأيتك ألهمنى حدسى بأنك الشريكة المطلوبة ، وإنى أومن بالحدس إيمانى بالعقل .
- فأخرسنى التأثر الشديد عن التفوه بأى كلمة واستمرت هى تقول :
- ولكن الملكة خلقت للواجب قبل كل شئ ، ما رأيك فى ذلك ؟
- أرجو أن أكون كما تودين يا مولاتى .
- فقلت بصوت نافذ :
- عدينى بالتعاون معى دون قيد أو شرط .

فقلت وأنا لا أقدر مسئولية قولى :
أنى أعذك بذلك .

— وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك .

كان الامتنان يشلنى عن التفكير ، ولكن ما إن غادرت محضرها حتى شعرت بأننى أرسف فى أغلالها ، وبأنها قوه لا يمكن الاستهانة بها ، وبأنها رقيب يرصدنى من الداخل والخارج معا . وتذكرت ولى العهد فأيقنت من أن حاله مهما جل فإنه لن يسوغه لى كزوج ، وأنى سأدفع ثمن المجد غاليا . وذهلت الأسرة للخبر وثلمت به . أجل يمكن تصور أثره فى أعماق قلب موت نجمت ، ويمكن تصور مشاركة تى لا يبتها فى عواطفها الخفية ، ولكن الحظ تدفق تلك المرة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات . وإن يكن وعدنى بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة . من أجل ذلك أقبلوا على بسدون إلى القبلات وأطيب الدعوات . وتذكرت النبوءة وكيف تحققت بمعجزة فهل تتحقق أيضا لموت نجمت ؟ . وساورنى قلق . ولعل موت نجمت تذكرت ذلك أيضا فشعزت صبرها ونواياها ، ولكننى صممت على طرد المخاوف . ودعانى أبى إلى حجرتة وقال لى بحنان :

— اليوم تسعد أمك فى قبرها .

فقلت بأسى :

— لعلها .

أفسألنى باسم .

— كيف تشعرين ؟

فأجبت بصدق .

— الحقيقة تفوق أى خيال .

— لا يستطيع الحظ أن يهب فرصة للمساعدة أقوى من ذلك .
فتساءلت :

— هل أضمن السعادة حقاً يا أبى ؟
فقال بحنان :

— العرش يهب المجد أما السعادة فمرهن بحكمة القلب .
فقلت بتأثر شديد :
— ما أصدقك يا أبى .
فقال بعطف :

— سأصلى من أجل نجاحك وسعادتك .

وتمت مراسيم الزواج بسرعة غير عادية . واحتفل به فى القصر احتفالاً يليق بعظمة الملك أمنتب الثالث وولعه بمتع الحياة . ومضت
بى تى إلى الحجرة المذهبة ، وهمست فى أذنى بكلماتها المفيدة ،
وأجلستنى على السرير الذهبى فى ثوب شفاف يتجلى تحته جسمى
العارى . ولاح فى الباب ولى العهد والمشاعل فى الأركان تزهى . نزع
شمלתه عن وزرة شفافة وأقبل نحوى فى خفة يطل من عينيه الشغف
العذب . أوقفنى فوق السرير وضم ساقى إلى صدره وهمس فى أذنى :
— أنت شمس حياتى .

وكان ينعم روحى بنوره أما جسدى فقد تقلص وانكمش أمام منظره
الغريب . وراح يقول بصراحة عجيبة :
— أحبيتك فى عيد الجلوس ، هرولت إلى أمى وصارحتها برغبتى
فى الزواج منك .

وضحك بسرور ثم واصل حديثه :
— أنكرت على رغبتى فى الزواج من فتاة لا يجرى فى عروقها الدم
الملكى فقلت لها « وأنت كذلك يا أمى » ، فتظاهرت بالغضب ،
ولكنها استدعتك إلى مقابلتها ، ثم زفت إلى موافقتها ..
وتذكرت ما ادعت من أنها صاحبة الفكرة وداريت ابتسامة . وكان
على أن أتكلم ، وأن أقول قولاً صادقا ، فقلت :
— لقد آمنت باللهك وبك من قبل أن أراك .

فهتف بحبور :

— على لسان آى أليس كذلك ؟ ، إنك أول من آمن يا نفرتيتى .
فقلت وأنا أدفع عن نفسى اللحظة الحرجة ما استطعت :
— سأكون أول من يترنم بنشيد الإله فى معبده .
— أعدك بذلك .

ثم لثم شفتى وهمس :

— ولكن عليك أن تنجى وريثا لعرش الإله !

وتلاشت مشاعرى القدسية فلم يبق محلها سوى الحياء والضيق .
ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين . أما عن حياتى الروحية فقد تلقيت
منه مددا لا يفنى أترع قلبى بالنور ، حتى توقعت أن يكلمنى الإله كما
يكلمه ، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر . أما جسمى
فكان يتجلد فى كآبة وصمت . وحلت به الثمرة فتوعكت صحتى
وتغير لونى ، وعبث القادم بى ، عبث برشاقة جسمى الجميل . وكان
مولاي يعيش فى الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة ، ويتحدى كافة القوى
من أجل الحقيقة ، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين ،

فساءلت نفسى فى قلق كيف أجيبه لو خطر له يوما أن يسألنى « أتحيينى يا نفرتينى » . لن أجد الشجاعة للكذب عليه . فضلا عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب . وأعددت إجابة على سؤاله المحتمل ، وهى أن أقول له :

— سيجىء الحب فى وقته فمعدرة لأننى أكره الكذب مثلك .
وهى إجابة ربما تلاشت معها أحلامى ، وأقصتنى عن المجد والنور . ولكنه لم يطرح ذلك السؤال قط ، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقي . ويوما استدعتنى الملكة تيسى إلى استراحتها ، وراحت تتفحص حسدى باسمه ثم قالت :
— اعتنى بنفسك ففى بطنك تدب حياة ستنتضم عاجلا إلى تاريخ هذا الوطن .

فلمست فى قولها إشارة إلى انتظار ولى العهد فقلت :

— صلى من أجلى يامولاتى .

فقلت بثقة :

— أمامك عمر طويل .

فقلت بإشفاق :

— لا حيلة لى فى ذلك .

فقلت محذرة :

— لا تسلطى الخوف على فكرك .

فقلت كالمتشكية :

— لى أسأل عما ليس فى طوق البشر .

فهمست :

الملكة ليست كسائر البشر !

إنها تحطم وسائل دفاعي . امرأة قوية وداهية وجديرة بما يصفها أبي
به من عظمة . وزوجي يحبها لدرجة مثيرة ، وهي تعتبره ملكها وحدها
حتى بعد زواجه . وشعرت أنني مازلت أرسف في أغلالها . ومضت
أنباء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجو يكفهر . وفي تلك
الفترة من حياتنا عرفت مدى قوة زوجي المستترة وراء ضعفه
الجسدي ، لمست صلابه روحه ، وقوة تصميمه ، وعنف شجاعته ،
وصموده أمام التحديات . قال لي مرة :

— إن أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تشيني عن هدفى .

فقلت له متأثرة بحماسه :

— إنى معك فى جميع الأحوال .

فهتف :

— لن يخذلنا إلهنا .

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزرعاه عن موقفه . ودعتنى تبنى إلى
لقاء فى يوم اعتبره من أخطر أيام حياتى . سألتنى :

— هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة ؟

فقلت لها وأنا أتوثب لمعركة :

— أحزان طيبة هى أحزاننا .

فتساءلت بدهاء :

— ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة ؟

فقلت بجرأة :

— كلمات إلهه هى الأقوى .

فقلت بتوجس :

— ولكنك لا تبدين حزينة أو قلقة .

فهويت على أغلالى قائلة :

— إنى مؤمنة بما يقول يامولاتى .

بذلك التصريح أعلنت أن حبى للإله أقوى من حبى للعرش وحررت

نفسى . واتسعت عيناها النجلاوان وتساءلت :

— آمنت حقا بالإله الجديد ؟

— نعم يامولاتى .

لكن ذلك يعنى إنكار آلهة مصر ؟

فقلت بحرارة :

— إنه واحد لا شريك له .

فتساءلت بنبرة غاضبة :

— أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم ؟

— إنه لا يتعرض للآخرين .

— لكنه سيكون يوما الملك الخادم لجميع الآلهة ؟

— نحن لا نخدم إلا إلهنا واحدا .

فهتفت :

— ألا تقدرين عواقب هذا التمرد ؟

فقلت بثقة صادقة :

— إلهنا لن يخذلنا أبدا .

فسألتنى بغیظ ومرارة :

— ألم تعدينى بالتعاون دون قيد أو شرط ؟

فقلت برقة :

— إنك مولاتى ولكنه الإله فوق كل شىء .

ورجعت إلى جناحى دامعة العينين ، مجهولة المصير ، ولكن مطمئنة القلب . وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية . وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولى العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيه ! . ولكنى شعرت أيضا بأن تبنى شرعت تعاقبنى بحرمانى من زوجى فى وقت أو شكت فيه على الوضع . ولما ذهب ألقى بى فى خضم تجربة جديدة ما تصورتها قط . ماذا حدث فى تلك الأيام ؟ . انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاما . وغزرتى وحدة مخيفة خائفة ، لم يخفف منها ملازمة مريبتى تى ولا غناء الجوارى ورقصهن . واحتوتنى الكآبة ودثرتنى بكفنها .

افتقدت مولاي فى كل ركن من أركان جناحى وفى كل ساعة من يومى . لم أتخيل أنه كان يشغل ذلك الحيز كله من حياتى ، واكتشفت أنه سر حياتى وكنز سعادتى ، لا كمعلم . فحسب ، ولكن كزوج وحيب أيضا . وبكى ندماً على عماى وجهلى ، وتلهفت على رجعتى لألقى بقلبى تحت قدميه . وحدث فى القصر ما سرى عنه بعض همومه ، فقد جاءنى المخاض ، كما جاء الملكة تبنى ، فى وقت واحد تقريبا ، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون . ولما عرفت بأننى رزقت أنثى ركبى الهم والحزن ، وتوكد لدى بأن مركزى يزداد ضعفا أمام امرأة القصر القوية . وترامت

إلى همسات الحريم بأن لعنة الكهنة قد حلت بى وأنى لن أنجب ذكرا ما حييت .

وفى تلك الأثناء جاءت تادوخيا ابنة ملك ميتانى لتلعب دورها فى طيبة . وكان الملك أمنتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعما لأواصر الصداقة بينه وبين ميتانى . وكانت تبنى تدرك بواعث زوجها الحقيقية ولكنها كانت دائما تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوة خارقة على الغيرة مكرسة جل وقتها للحكم . وجاءت تادوخيا تشق طريق طيبة فى موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية . تسليت بسماع الأنباء وأنا غارقة فى وحدتى وأحزاني ، وحدثتني تى عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها ، وختمت حديثها بقولها :

— ولكن لا تعلقو على شمسنا شمس فى الوجود !
وذاع فى جنبات القصر أن الملك العجوز الذى أخذ المرض يكدره قد هام بالعروس الجديدة التى فى عمر أحفاده ، وأنه غرق فى بحر العسل . ولكن باله لم يصف طويلا إذ جاءت التقارير عن رحلة ولى العهد لتعصف بأمنه وسعادته . ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالنى أول ما هالنى ما حل بالملك من ضعف نتيجة لإفراطه فى الحب واللهو . رغم ذلك بدا غاضبا شرسا ، وجعل يهتف :

— ياله من فتى طائش .

فقال تبنى :
— يمكن أن نسترد هيبتنا بعرض لجيش الدفاع فى أنحاء الإمبراطورية !

فقال لها ساخرا :

— لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يسترده مهما فعلنا .

فتساءلت بعد تردد :

— ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه ؟

فهتف بى :

— ما أنت إلا حمقاء مثله .

وقالت لى المرأة الداهية :

— كان بوسعك أن تعقله !

فقلت لها وأنا أدارى انفعالى :

— هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتى !

فقالت متمادبة فى تحديها لى :

— ولكنك تشجيعينه وأنت راضية !

فلوح أمنتب الثالث بيده مهددا وقال :

— سأخيره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد !

ورجعت إلى أحزاني مشفية على اليأس . ولكن تى أيقظتنى فى

صباح اليوم التالى ، ثم همست فى أذنى :

— مات الملك يا مولاتى .

وثل قلبى بالحزن . وجعلت أتساءل ترى هل نفذ الملك وعيده قبل

وفاته ؟ . وهل يمكن أن تضحى تى بابنها المعبود ؟ . وفى الفترة التى

جمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتنى الملكة وقالت لى وهى

ترمقنى من خلال عينيها الحمرابين من أثر البكاء :

— اعلمى أن الكهنة اقترحوا على المنادة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكا على أن أتولى الوصاية على العرش .
لم أشك فى تلك اللحظة فى أنها أنزلت بى عقابها بكل ثقله وعنفه
فقلت مستسلمة لقدرى :

— قرارك دائما يصدر عن حكمة وإنى به راضية !
فتساءلت بقسوة :

— أنتطيقين عن صدق ؟

فأجبت بهدوء اليأس :

— وماذا أملك سوى ذلك ؟

فقالت بحدّة :

— غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح !

فتنفست بعد غرق وأعيانى الكلام فسألتنى ساخرة :

— سعيدة ؟

فقلت بأمانة :

— نعم يا مولاتى فإنى أمقت الكذب !

— هل تعديتنى بالدفاع عن العقل والتقاليد ؟

فقلت وأنا أتمزق :

— لا أستطيع يا مولاتى !

فنفخت مغیظة محنقة وهتفت :

— إنك تستحقين العقاب ، ولكنك جديرة بالإعجاب أيضا ،

فلتواحها مصيركما بحكمكما ولتكن مشيئة الآلهة !

وصرفتنى مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحى سعيدة رغم الحداد

وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغير . وما لبث حبیبی أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبی . وتفرس فی وجهی وقتا ثم قال بطمأنينة :

— أخيرا جاء الحب يا نفرتیتی !

فأذهلنی قوله وعزانی وقلت متلعة :

— إني أحبك من قبل أن تراك عینای .

فقال باسم :

— ولكنك لم تحببني كزوج إلا هذه المرة !

فأذهلتنی قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس . ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن ، ورجع إليّ بأثر البكاء فی عينيه ثم قال كالمعتذر :

— الموت يهزني حقا ، ثم إنني لم أحبه كما يجب !

وجلسنا على العرش فی جو ملء بالتربص والتحدى ، وسرعان ما تجلت قوة حبیبی الكامنة كأعظم ما تكون القوة . وبدأ بعرض دينه على رحاله فأعلنوا إيمانهم به . ولم أشك أنا فی صدقهم قياسا على نفسی ، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين ، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس ، باستثناء مری رع الكاهن الأكبر . ولا أشك اليوم فی أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم ، وأنها نفذت إلى أغوار قلوبهم ، ولكنه كان يؤمن دائما بأن الحب كفيل بهداية الجميع فی النهاية ، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحي إلى الإيمان الحقيقي عندما يآزف الوقت وكما فعلت أنا فی علاقتی الزوجية به . بل أقول أكثر من ذلك بأن نفرا منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلموا بأن يخلفوه فی ذروة الأزمة ، منهم حور محب ، بل منهم أبی

آى نفسه ، وليس الحدس مرجعى الوحيد فى تصورى هذا ولكنى استخرجته ببطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير فى أيام الهزيمة . لذلك أراحنى جدا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم ، وإن كنت أشك فى أنهم يئسوا حقا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى . على أى حال بدأ حكمنا فى ذلك الجو المتوتر ، ولكننا كنا سعداء رغم كل شئ ، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكونت ثمرة جديدة فى بطنى نتيجة للحب الكامل هذه المرة . ولم يعرف امرأة غيرى رغم أنه ورث حريم أبيه كما تقضى التقاليد ، وفيه الميثانية الجميلة تادوخيبا .

وزارتنا الملكة الوالدة تى فتوقعت متاعب من نوع ما . وصح ظنى فقالت لابنها على مسمع منى :

— أيها الملك ، إنك تهمل الحريم ..

فقال زوجى ضاحكا :

— إنى موحد فى الحب كما فى الدين !

فقالت بجدية :

— ولكنك مطالب بالعدل . ولا تنس تادوخيبا ابنة صديقنا توشراتا

فهى تستحق الرعاية إكراما لأبيها ..

ونظرت نحوى فزاغ عنها بصرى وأنا فى غاية الضيق فقالت بدهاء :

— نفرتيتى تثبت كل يوم أنها جديدة بتعرش فلعلها توافقنى على

رأى ..

فواظلت على صمتى كاظمة غيظى على حين راحت تحدث عن

واجبات الملكة . ولم أستطع أن أقهر رغبتى فى زيارة الحريم ، فى

الظاهر للعارف وفي الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة . ووجدتها جميلة
حقا ولكن ثقتي بنفسى لم تنزعزع ، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا
عدوتين سافرتين . وفي اليوم التالي جالست زوجى فى جوسق بالحديقة
وإذا بى أسأله :

— ماذا تنوى بالنسبة للحريم ؟

فاجابنى ببساطة :

— لا رغبة لى فيه !

فقلت باحتجاج :

— ولكن الملكة الوالدة لا تكثرث للرغبات !

فقال بغموض :

— إنها مولعة بالتقاليد !

فقلت بوضوح :

— أما أنت فإنك عدو التقاليد الأول .

فضحك بسرور وقال :

— صدقت يا حبيبتى !

وأظن أنه فى ذلك الوقت تمت المقابلة المشيرة بينى وبين كاهن آمون

الأكبر . تمت بناء على طلبه وبوساطة أبى . وقال لى :

— مولاتى ، لعلك تعلمين بما جئت من أجله ؟

فقلت له دون مواربة :

— إنى مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر .

فقال برجاء :

— ليعبد الملك ما يشاء من الآلهة ولكن لجميع الآلهة وعلى رأسها
آمون حق فى الرعاية .

فقلت :

— إنما لا تتعرض بسوء لأى إله .

فقال برقة :

— إننى أطمح إلى دفاع الملكة عنا عند الضرورة !

فقلت بصدق :

— لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعنى الوفاء به .

فقال بأسى :

— كان أبوك واحدا منا وبينى وبينه صداقة لا تنفصم عراها .

فقلت :

— بسرنى أن اسمع ذلك .

وذهب الرجل ولا شك عندى فى أنه أضمر لى عداوة ثابتة . وكرس
الملك حياته كلها لرسائله ، داعيا للحب بالحب ، نافيا العنف والقهر
والعقاب ، مخففا الضرائب عن الفقراء ، حتى آمن الجميع بأن عهدا
جديدا من الخير يحل بأرض مصر . وحاءنى المخاض فولدت ابنتى
الثانية سيكيتاتون فخاب رجائى للمرة الثانية فى إنجاب ولى للعهد .
وكرر الحديث عن سحر الكهنة ولكن زوجى أحب المولودة من أول
نظرة وقال لى مواسيا :

— سيجىء ولى العهد فى حينه لا قبل ذلك .

وكمل تشييد معبد جديد لإلهنا الواحد فى طيبة ، وذهبنا فى مركب
لافتتاحه ، وإذا بالكهنة يجمعون أذنابا لهم فتظاهروا فى طريق الملك

وهتفوا لآمون . واستاء القصر لذاك التحدى السافر ، وسهر الملك فى الشرفة مغتما على غير العادة ، وراح يخاطب طيبة قائلاً :
— طيبة ، يا مدينة الشر والأشرار ، يامثوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين ، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة !

وأمره الإله ببناء مدينة جديدة له ، ونفذ الأمر فرحل بك على رأس ثمانين ألفاً من المهندسين والعمال لتشييد مدينة الإله الواحد . وعشنا فى أثناء ذلك هائنين بسعادتنا الشخصية يتربص بنا جو عدائى شديد التوتر . وأنجبت انحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمرى لإلهى خالق الإناث والذكور . وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحبين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون أما الملكة تيبى فأصرت على البقاء فى طيبة على كنب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد .

ولما وجدتنى فى مدينة النور أخت آتون المتجلىة فى وحدة هندسية متناسقة استخفى السرور فهتفت فى نشوة وبراءة :

— ما أحمل الجمال ، ما أعذب روحك يا إلهى !

وأفتحت المدينة بالصلاة فى المعبد ، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه ، ثم ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة ، ورسم مرى رع كاهنا أكبر . وجرى نهر الحياة حاملاً إلينا بركات السعادة والنصر ، حتى رجع إلّى يوما من خلوته يلوح فى وجهه الجد والتصميم وقال لى :

— أمرنى إلهى بأن يعبد وحده فى البلاد !

وفى الحال أدركت خطورة ما ينطوى عليه ذلك الأمر ، فتساءلت :

— والآلهة الأخرى ؟

فقال بثبات وعينه تومضان :

— سأصدر أمرى بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها .

وران على صمت حتى تساءل :

— لا تبدين سعيدة يا نفرتيتى ؟

فقلت بعجلة :

— إنك تتحدى كهنة البلاد أجمعين .

فقال ببساطة وثقة :

— إننى على ذلك لقادر .

فقلت بعد تردد :

— ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل الحب والسلام ؟

— لن ألجأ إلى العنف ما حييت !

— وإذا تصدوا لأمرى بالمقاومة ؟

— سأوزع الأوقاف على الفقراء ولن أعرض لمتنمر بسوء قانعا

بدعوة شعبى إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك .

فانكشف عنى العم ، وقبلته وأنا أقول :

— لن يتخلى عنك إلهك .

وصدر الأمر . وحدث ما لم أتوقعه فنفذ بهدوء شامل . بفضل

الإله ، وبقوة العرش المهيمنة على النفوس . وارددنا ثقة بغير حدود .

وفى العصارى كنا نطلق فى عربتنا الملكية بلا حرس نجوب تنوارع

أخت آتون الواسعة تحف بنا الجماهير المتحمسة والتخيل والصفصاف

وأشجار البلخ ، محطمين حواجز الوهم بين العرش والبأس ، نكاد

نعرف الناس جميعا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم ، وحلّ الحب حقا محلّ الخوف القديم ، وتغنى الجميع بأعذب الألحان القدسية . وهمس أبى فى أذنى مرة :

— أخشى أن تبددوا هبة الملك .

فقلت له وأنا أضحك :

— نحن نعيش فى الحقيقة يا أبى ..

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدسة داعين لعبادة الواحد الأحد ، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر ، ولم نكثرث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرى ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا . ولم يعد سلوك مولاي يدهش أحدا لانغماسه الكلى فى عالمه المقدس ، أما أنا فأدهشت الكثيرين حتى سلموا بأننى لغز لا يحل . إذ كيف أهيم مثله فى عالمه القدسى رغم وعيى الكامل بواقع الشؤون الإدارية والمالية للبلاد . فلعلهم لم يصدقوا أننى كنت صنوه فى الإيمان والحماس للرسالة . وكنت أشاركه الحياة فى الحقيقة وأصدق كل كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذى لم يكذب قط . وقال لى ونحن ننتشى بدروة الفوز :

— عندما تتطهر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعا بسماع

الصوت الإلهى ويعيشون فى الحقيقة !

ذلك كان حلمه ، أن يعيش الناس أجمعون فى الحقيقة .

ورجعنا من رحلاتنا الموفقة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه . وجثا إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصلى ، وانتحيت بالطبيب بنتو فى أقصى الحجرة وقالت له .

. البنت نموت يا بنتو .

فأجابنى بأسى :

— قد بذلت ما فى وسعى !

فقلت فى حق وقهر :

— إنهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحب الكائنات إلى قلبه ..

وسمعه يهمس بحرارة مخاطبا إلهه :

— لا تفجعنى فيها يا إلهى ، إنى أحبها ولا أطيق الحياة بدونها ...

إنها أنضج من عمرها وستكرس حياتها لخدمتك ..

لكن روحها مضت تتسرب رويدا من قبضة حينا حتى تركتنا متسامية

للنجوم . وانكبنا عليها نبكى ونولول مستسلمين لطغيان الحزن .

وجعل يخاطب إلهه :

— لماذا يا إلهى ؟ ، لماذا تمتحن إيمانى بشدة لا داعى لها ؟ ، لماذا

تصارحنى بقسوة بأننى مازلت بعيدا عن معرفتك ، لماذا تعاملتنى بعنف

وأنت الرحمة ، وبجفاء وأنت الحبيب ، وبغضب وأنا المطيع ،

وبغموض وأنت النور ، لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا

الذكاء ؟ ، ولماذا جعلتنا نجبها كل الحب ونعدها لخدمتك فى معبدك ؟

وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد وخارجها مما

علمتها بالتفصيل كما ذكرت لى . ولعل أتعس الناس هم الذين يتداوون من

حزنهم بحزن أشد . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة

بحذافرها . ولا أنكر أن عزيتمى اجتاحتها الكآبة وخامرنى القلق ، أما

مولاي فقد صمد أمام العاصفة كأنه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حد لها :

— لن يخذلنى إلهى ، ولن أحيد عن الحب قيد ذرة رمل .

وعدتنى قوته الخارقة فانتعشت روحى قاهرة جميع الهواجس
والوساوس ، وندمت على صغفى العابر . ولما ساءت الحال أكثر
حاءتنا الملكة الوالدة تبنى . واحنمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا فى
قصرها بجنوب أخت آتون . وبدأت حديثها قائلة :
— السماء مليئة بالغيوم .

ونقلت بيننا عينيها اللتين أحاط بهما الكبير وقالت :
— أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك فى جميع الظروف
والأحوال .
فسألتها :

— ترى هل داخلك الشك فيهم ؟
فقلت لى بعتاب :

— المحن تطالبنا بالتماس اليقين ..
فقال إخناتون :

— إلهى لا يبالى بالمحن !
فقلت بحدة :

— بل عما قليل ستنفجر الفتن .
فقال بثقة :

— لن يتخلى عنى إلهى أبدا .
— لا أملك الحق فى التحدث باسم الآلهة ، إنهم أكبر من ذلك وإنى
أصغر من ذلك ، ولكنى أعرف مايجرى فى دنيا الناس .
فقال بأسى :
— أمى ، إنك غير مؤمنة ..

— لا تتحدث عما بينى وبين الغيب ، حدثنى كملك وأصغ إلى كملكة ، أقول لك تحرك قبل فوات الأوان ، لديك جيش الحدود بقيادة ماى فمره بالزحف على الإمبراطورية ، ولديك قوات الحرس والشرطة فمرها بضرب الفساد والمفسدين ، أسرع قبل أن يتهامى عرشك أنقاضا ..

فقال بحدة :

— لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقالت فى أسمى عميق :

— لا تجعلنى أندم على تمسكى لك بالعرش .

فهتف :

— لا يهمنى العرش إلا باعتباره الوسيلة لخدمة الإله !

فنظرت إلى تىي وقالت :

— تكلمى أيتها الملكة فلعلى لم أخترك إلا من أجل هذه الساعة ..

فقلت بحماس لا يقل عن حماس مولاي :

— لن يخذلنا إلهنا يا أماه .

فاكفهر وجهها المتغضن وقالت بغضب :

— استحکم الجنون وانتصر القدر .

وغادرت تىي أخت آتون حزينة مريضة ، ولم يمتد بها العمر فى طيبة إلا أياما ثم فاضت روحها الكسيرة . ولم تمض أيام حتى طلب آى وناخت وحمور محب مقابلة الملك فاستقبلناهم فى الحال . ولما نظر إخناتون فى وجوههم قال باسمه :

— لم تجيئوا لخير .

فقال آى :

جئنا يا مولاي مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطورية !
نتساءل إخناتون :

— وماذا عن إيمانكم بخالق كل شيء ؟

فقال آى :

— مازلنا نؤمن به ولكننا مسئولون عن دنيانا يا مولاي ..

فقال إخناتون :

— لاقيمة لهذه المسئولية إذا لم تتبع من ذلك الإيمان ..

وعند ذاك قال ناخت :

— العدو يتوغل فى الإمبراطورية ، والولايات أعلنت تمرداها فى
البلاد ، ونحن فى الواقع محصورون فى أخت آتون ..

فقال الملك بإصرار :

— لن يتخلى عنى إلهى ، وبالتالى لن أتخلى عن رسالته !

وهنا قال حور محب :

— سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا !

فقال إخناتون :

— لن تقوم حرب أهلية .

فتساءل حور محب :

— هل نترك حتى نذبح كالأغنام ؟

فقال الملك :

— سألقى الجيش المهاجم وحدى بلا سلاح .

فقال حور محب بحزم :

— سيقتلونك ثم يقتلوننا ، وطالما أنك مستمسك بديانتك ففتح عن العرش وتفرغ لها ..

فقال بوضوح :

— لن أنتحى عن عرش الإله فهى الخيانة !

ثم نظر فى وجوههم وقال :

— إني أعفيكم من الولاء لى .

فقال حور محب :

— سنترك لجلالتكم مهلة للتدبر .

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارا نهائيا . وما كنت أتصور أن يلقي فرعون مثل ذلك الهوان . وتساءلت فى حيرة بالغة حتى متى يضمن علينا إلهنا بالنصر ؟ . وعجبت لإيمان حبيبي الراسخ ، واقتنعت بأننى مازلت دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد .

وجاء حور محب لمقابلتى على انفراد وقال لى :

— افعلى شيئا ، افعلى ما يوسعك ، سيقتل حتما إذا أصر على موقفه ، بل قد يقتل بيد أحد رجاله ! ، عليك أن تفعل شيئا قبل فوات الفرصة ..

وتخايل لعينى شبح الموت والهزيمة ، تسلل وهن إلى إرادتى ، وشئ من الشك إلى عقيدتى ، وتساءلت فى حيرة معذبة كيف أنقذ حبيبي من الموت ؟ . وخطر لى أننى إذا هجرته فلعل ثقته بنفسه تنزعزع فيذعن لمشيئة رجاله ، ويتنحى عن العرش . أجل سيؤم بأننى خنته كالآخرين ولكننى لم أكن أملك وسيلة أخرى . هكذا أقدمت على هجر حبيبي وقصرى ، فلذت بقصرى الخاص فى شمال أخت آتون باكية .

العينين ، دامية القلب . وزارتني أختي موت نجمت ، وأخبرتني بأن الملك مصر على عناده ، وأنهم وجدوا الحل فى إخلاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، وبذلك تنعدم دواعى الحرب الأهلية ، ثم سألتني بخبث :

— متى ترحلين إلى طيبة ؟

وكنت أقرأ افكارها بوضوح فقلت بخشونة :

— لقد تحققت نبوءة ، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقق ، فاذهبي

بسلام ، أما أنا فسأبقى إلى جانب زوجي وإلهي ..

وغمرتني أيام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبي جميع ذكريات السعادة الماضية فكأنني لم أذق للسعادة طعما على مدى عمرى . قبعث فى قوقعة الشعور بالإثم ، أرقب من نافذتي مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة . ترامى إلى هديرهم وبكاؤهم ، وصراح أطفالهم ، ونباح كلابهم ، ورأيت تياراتهم لا تنقطع ، ماضية فى طوابير ، حاملة ما خف من متاعهم ، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب ، وأغلقت النوافذ والأبواب ، تابعتهم نظراتي الحائرة حتى آحر حى ، ثم رأيت الوحشة تحل محلهم فى المساكن والحدائق والشوارع وتطوق الأشجار ، وأيت الفناء يحلق فى الجو مرسلا نذره الساخرة ، فهتفت من قلبي الجريح :

— أخت آتون .. يامدينة النور .. يامدينة الوحدة القاتلة .. قاسمينا

الحظ والمصير .. أين التراتيل والألحان .. أين قبلات النصر والحب .. أين أنت يا إلهى الواحد .. لم تحليت عن المخلصين ؟!

خلت المدينة . وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى . لم يبق من أهلها إلا سجينان ، حبيبي وأنا ، ونفر من حرس الأعداء . ترى فيم يفكر ، وكيف يرانى ، وإلام آل إيمانه ؟ . وقررت أن أذهب إليه لتتكشف ونصفي الحساب ولكنى منعت من مغادرة القصر ، وحيل بينى وبين مراسلته ، فأدركت أنه لم يبق لى إلا انتظار الموت فى السجن . وكذلك حبيبي ومولاى . وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبي البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبى آى أو القائد حور محب ، ولكن رئيس الحراس قال لى بحزم وخشونة :
— إنك ممنوعة من أى اتصال بالخارج .

فتصبرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل . وغفلت عن معالم الزمن غارقة فى تأملات حزينة وصلوات متواصلة حتى استرددت إيمانى خالصا بإلهى رغم كل شىء ، بل وآمنت بأن النصر النهائى سيكون له وإن طال الانتظار . وكبر على أن أتصور أن حبيبي الذى عرفته أكثر من أى إنسان يمكن أن يئأس أو يهزم أو يفقد ثقته فى إلهه الذى خصه بمناجاته دون الناس جميعا . لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيوى ولكنه ظل ولا شك هائما فى الحقيقة مطلعا على الأبدية ، سعيدا بين يدى إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة ، منغمسا فى الأنس والرضا والحب .

ولذلك فعندما جاءني رئيس الحرس وقال بصوته الجاف :
— أذن لى أن أبلغك بأن الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل ، وأن بعثة ملكية قامت بتحنيطه ودفنه تبعا للمراسيم الفرعونية .

لم أصدق كلمة مما قيل . حبيبي لم يمرض مرضاً أفضى به إلى الموت . لعلهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف ، ففارق الدنيا المارقة ليستقر في قلب الخلود . وسوف ألحق به ذات يوم ليطلع على براءتي ويمنحني عفوه ويجلسني إلى جانبه على عرش الحقيقة .

* * *

وتلاشي الصوت العذب بعد الجهد ، ولبثت مولاتي صامته حزينة جليلة تتخدى المحن . ودعتها بكل إكبار ، وانصرفت على رغمي مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة .

* * *

ولما رجعت إلى سايس استقبلني أبى بشوق ، وراح يسألني عن رحلتي وأجيبه ، وامتد الحوار بيننا أياماً وتشعب . وقلت له كل شيء تقريباً ، ولكنني أخفيت عنه أمرين .
ولعى المتزايد بالأناشيد .
وحيى العميق لتلك السيدة الجميلة .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة ١٩٧٦ العاشرة
عبث الاقدار	١٩٣٩	العاشر ١٩٨٢
رادوبيس	١٩٤٣	العاشر ١٩٨١
كفاح طيبة	١٩٤٤	العاشر ١٩٧٩
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	الثانية عشرة ١٩٨٤
خان الخليلي	١٩٤٦	العاشر ١٩٧٩
زقاق الملوك	١٩٤٧	العاشر ١٩٨٢
السراب	١٩٤٨	الثانية عشرة ١٩٨٤
بداية ونهاية	١٩٤٩	الرابعة عشرة ١٩٨٤
بين القصرين	١٩٥٦	الثانية عشرة ١٩٨٣
قصر الشوق	١٩٥٧	الثانية عشرة ١٩٨٤
السكرية	١٩٥٧	الحادية عشرة ١٩٨٤
اللى والكلاب	١٩٦١	التاسعة ١٩٨٠
السمان والخريف	١٩٦٢	الثامنة ١٩٨٤
دنيا الله	١٩٦٢	الخامسة ١٩٧٨
الطريق	١٩٦٤	الثامنة ١٩٨٤
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	السابعة ١٩٨٣
الشحاذ	١٩٦٥	السابعة ١٩٨٢
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	السادسة ١٩٨٣
مصرامير	١٩٦٧	الخامسة ١٩٧٩
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	السابعة ١٩٨٥
تحت المظلة	١٩٦٩	السادسة ١٩٨٤

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	١٩٨٧ السابعة
شهر العسل	١٩٧١	١٩٨٢ السادسة
للمرايا	١٩٧٢	١٩٨٠ الخامسة
الحب تحت المطر	١٩٧٣	١٩٨٠ الرابعة
الجريمة	١٩٧٣	١٩٨٤ الخامسة
الكرنك	١٩٧٤	١٩٨٦ السابعة
حكايات حارتنا	١٩٧٥	١٩٨٦ السادسة
قلب الليل	١٩٧٥	١٩٨١ الثالثة
حضرة المحترم	١٩٧٥	١٩٨٣ الرابعة
ملحمة الخرافيش	١٩٧٧	١٩٨٥ الرابعة
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
الشیطان يعظ	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
عصر الحب	١٩٨٠	١٩٨٧ الثانية
أفراح القبة	١٩٨١	١٩٨٧ الثالثة
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	١٩٨٥ الثانية
مام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	١٩٨٥ الثانية
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر	رواية	
الفجر الكاذب	مجموعة	

رقم الإيداع ١٨١٢ — ٨٥

الترقيم الدولى ٦ — ٠١٣٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثلث ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سميد جوده السحار وشركاه